



سُلْطَةُ النُّبُوخِ الخَصْدِيَّةِ



سُاطِرُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

الدكتور محمد راجوادی

سُطْرُ طَبْرِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
الْحَضْبِيِّ





الطبعة الأولى

2020 - 1442

ISBN 978-625-7682-07-7



يقدم هذا الكتاب نماذج بارزة للنبوغ البشري الخصيب الذي مارس سلطاته العقلية و السياسية والاجتماعية على نحو أثمر بل لا يزال يُثمر نتائج ذكية في أجيال متعاقبة، ويجمع النبوغ بين هؤلاء الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب في فصوله المختلفة التي كتبناها بتكليفات محددة في أحجام محددة من أجل مناسبات محددة، ومن حسن الحظ أنها لقيت أفضل الفرص في النشر والقراءة والتفاعل إذ نُشرت في مجلة العربي الكويتية و الأهرام والأخبار وروز اليوسف ومجلة الشباب، مع حفاوة واهتمام.

ومع أن ثلاثة من الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب قد حظوا من جهودنا بكتب كاملة عنهم (الدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور أحمد زكي والشهيد عبد المنعم رياض) فإن طابع الكتابة الموجزة كفيلاً بأن يضيء من شخصياتهم، ما لا تضمن الكتابة الموسعة أن تقدمه للمتعجلين بسبب ما تتطلبه من الوقت والتواصل في مطالعتها.

و بالمنطق ذاته فإن مقالينا عن الزعيم سعد زغلول والأستاذ عباس محمود العقاد يكفلان للقارئ فكرة عمومية متماسكة محيطية بهذه الشخصية الثرية على نحو يمكن للتعريف الشامل بها أن يتمه من دون الغرق في بحارها وذلك على الرغم من تناولنا لبعض الجوانب من شخصيتي هذين العلمين الكبيرين العظيمين في دراسات وفصول أخرى.

وشبيه بهذين الفصلين ما كتبناه عن الدكتور حسين فوزي في مقال تباعد الزمن بيننا وبينه إذ نشر ١٩٨١، وقد حاولنا فيه الوصول بالقارئ إلى آفاق كفيلة بإدراك معالم النبوغ في هذه الشخصية الفذة ذات العطاء المتصل والمتعدد .

ونستطيع أن نقول عن الفصلين المكتوبين عن الأستاذين مصطفى أمين وإحسان عبد القدوس إنهما يمثلان رؤية تجمع المكونات الثلاثة من السياسة والصحافة والأدب من دون إجحاف بأحدها لأجل مكون آخر، أو من أجل المكونين الآخرين ، ولهذا يقدم هذان الفصلان ذلك المزيج من النقد السياسي والصحفي والأدبي في إطار تاريخي يعترف بالواقع ولا يتجاوزة ، ويحلله ولا ينكره.

و وتتكامل رؤية هذين الفصلين مع ما قدمناه في الفصول الستة السابقة من تحليل العناصر المكونة للعقل العربي عبر الإنتاج الفكري لهؤلاء الأعلام في الفكر والكلمة التي تصدر عن معرفة بالعلم أو بالفكر أو بكليهما فنحن لا نؤمن بالفصل بين العلم والأدب وإنما نؤمن بوحدة المعرفة و نعمل من أجل هذا الإيمان بكل ما نطيق.

ويقدم الفصل الخاص بالفريق عزيز المصري سيرة حياة موجزة لهذه الشخصية العسكرية الفذة التي تعددت زوايا النظر إلى نشاطها من خلال نوافذ رؤيتها، فالنظر إليه من زاوية القومية العربية يختلف عن النظر إليه من زاوية الوطنية المصرية ، ويختلف هذان النظيران عن زوايا أخرى عديدة من قبيل التقدم والثورة والمغامرة والانحياز الغربي البريطاني أو الأمريكي، أو حتى الألماني أو السوفييتي.

وما من شك في أن الأفق الذي ننطلق منه في مقارباتنا لمثل هذه الشخصية يمثل فضلاً من الله جلّ جلاله في وصولنا إلى التوفيق في الكتابة عن مثل هذه الشخصية بعيداً عن روح الاتهام أو التآمر أو عن روح الفخر الراديكالي أو "العنصري".

ويشبه هذا الفصل إلى حد بعيد المقال الاحتفالي الذي كتبناه في تحية الدكتور عاطف صدقي، ومع أننا كتبنا سيرته كاملة في كتابنا "أسرى السلطة" فإن هذا المقال المبكر كان حريصاً على أن يضيء جوانب التفوق في أفضل رؤساء وزراء مصر بعد ١٩٥٢ في وقت لم تكن الجماهير العربية قد تعودت ، بعد ، على ما نقدمه من نقد موضوعي (و غير أيديولوجي) للسياسات والممارسات في إطار رؤية ثلاثية الأبعاد : علمية ومعلوماتية وعملية ، بعيداً عما تعودت عليه العقلية المعاصرة من أحاديث الذكريات الموجهة و المشاعر الانطباعية .

ومن حسن الحظ أننا طيلة العقدين الماضيين مارسنا هذا التقييم السياسي للأدوار الفكرية على نطاق واسع فاستوعبنا به حركة الشخصيات التاريخية طيلة القرنين الماضيين على نحو ما يجده القارئ على سبيل المثال في كتبنا المتتالية في حقبها الزمنية المتداخلة :

- قبل مشرق النهضة ١٨٦٦-١٩١٠
- سلطة العقل الطموح ١٨٧٠-١٩٢٤
- أعيان المصريين من الاستقلال إلى الاحتلال ١٨٨٢-١٩٢٢
- أساتذة الأدب العربي المؤسسون ١٩٠٠-١٩٩٠
- سلطة النبوغ الخصيب ١٩٠٦-٢٠٠٠
- القضاء والرياسة في زمن السياسة ١٩١٤-١٩٥٢
- الشركاء المتشاكسون في ثورة ١٩١٩
- سلطة الإنجاز الوثائق ١٩٢٠-١٩٦٠
- سلطة الحضارة المستتيرة ١٩٢٤-١٩٥٢
- الفقه في كلية القانون ١٩٢٥-١٩٩٠
- الهندسة المستأنسة في ظل الديكتاتورية ١٩٥٢-٢٠١٠
- اسرى السلطة ١٩٧٠-١٩٩٣

وليس من شك في أن مجال رؤية تاريخنا يزداد اتساحا و اتساقا إذا ما أضفنا إلى هذه المجموعة ما تضمنته كتبنا السبعة التي تناولت مناهج و طرائق كتابة التاريخ ، و نظن أن طول عهد القارئ بها كفيلا بأن يجعله يتذكر تسلسلها بدءا من أدباء التنوير ثم النوافذ المتلونة ثم الزوايا الكاشفة ثم النجوم المتعاقبة ثم الانطباعات الذكية ثم كيف رأت ٢٣ يوليو صورتها في المرآة وأخيرا كتابنا عن جماليات الشعر والرحلة في كتابة تاريخنا .

و اليوم يأتي هذا الكتاب لينضم إلى مجموعات كتبنا السابقة عن أعلام تاريخنا ، وهي الكتب التي لقيت من التقدير و الإقبال فوق ما تستحق ، وقد أوشكت موسوعاتنا عن هذه الحقب المتتالية أن تستكمل أجزاءها بفضل الله و عونه.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفذ به ، وأدعوه جل جلاله أن يوفقني إلي تقديم ما تبقى من أعمالي ، وقد طال العهد بتجاربها الطبيعية في ظل غربتي ومرضي وتشردي واستيحاشي ، والوقت لا يسعني، والجهد يتضاءل، والذكاء يخبو ، والألمعية تنطفئ ، والقلب يئن ، والنظر يكل ، والعقل يتشتت ، والذاكرة تتبدد ، والسهل يتعقد ، والنفس يتقطع ، والأمل يتضعف، والعمر قصير، والواجب كبير ، والمؤجل كثير ، لكن رجائي يتضاعف في فضل الله جل جلاله وكرمه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يقيني شر الهوى، وأن يقيني شر التعجل، و شرور العجز و الكسل و الوهن ، وأن يقيني شر الانخداع، وأن يرزقني الغنى والهدى والعفاف والتقى، وأن يتجاوز عن سيئاتي، وأن يتغمدي برحمته، وأن يديم عليّ توفيقه، وأن يجعلني قادرًا على شكر فضله.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي وحدسي و ذائقتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل ، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وإخلاص المؤمنين ، وعطاء المحسنين ، وشك الأطباء، وتثبت العلماء ، وخيال المبدعين ، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي، وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته، فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول، وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعمني، وحبب فيه خلقه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ، بالطبع وبالتأكيد، كثيرة ومتواترة ومتنامية، فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل

د. محمد الجوادي

الفصل الأول

الزعيم سعد زغلول بعد ٨٠ عاما من ثورة ١٩١٩

بدايات ثورية : سجن وبراعة

ولد الزعيم المصري الكبير سعد زغلول باشا في إبيانة من قري الغربية (كفر الشيخ الآن)، ويروي أن اسمه كان سعد الله علي نحو ما كان اسم أخيه فتح الله (أحمد فتحي زغلول باشا). وكان والده فلاحاً موسراً ذا نفوذ وشخصية، وتوفي حين كان سعد في الخامسة من عمره، تعلم سعد في الكتّاب، ولبت يدرس في الأزهر في القاهرة بضع سنوات، اتصل خلالها بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، لكنه علي كل حال لم يتأهل بشهادة الأزهر العليا (العالمية).

واختير الزعيم سعد زغلول باشا لمعاونة محمد عبده في «الوقائع المصرية» في الوقت الذي كانت هذه الجريدة قد تطورت بحيث لا تنشر أخبار الحكومة وقراراتها فحسب، لكنها تعلق عليها وتعلق علي نصوص أحكام القضاء في درجاته المختلفة، وظل ارتباطه بمحمد عبده قائما حتي اندلعت الثورة العرابية وهو يومئذ موظف في نظارة الداخلية،

اشترك الزعيم سعد زغلول باشا في الثورة العرابية، وقبض عليه بتهمة الاشتراك في جمعية سرية اتهمت بقلب نظام الحكم ، ففضي في السجن شهورا لكنه برئ في النهاية.

من المحاماة للقضاء

عمل سعد زغلول بالمحاماة في الوقت الذي لم تكن تلك المهنة قد خضعت بعد لقيود المهنة، ولمع اسمه بأداء متميز حتي عد من أفضل المحامين في وقته، وربما وصل بعضهم إلي تقدير أنه كان أعظم محام شهدته تلك الحقبة، واختير ليتولى

القضاء طبقا للنظام الذي كان يسمح باختيار نبهاء المحامين للوظائف القضائية، وأصبح مستشارا بمحكمة الاستئناف، وهو أعلى منصب قضائي في ذلك الوقت، ومع ذلك فإنه واصل الدراسة بالعربية والفرنسية حتي حصل علي شهادة الحقوق من فرنسا، وقد أدي الامتحان هناك فأعجب به ممتحنوه، وقد نقلنا في كتابنا «في رحاب العدالة» تصوير الاستاذ يوسف بك نحاس لاجتيازه امتحان شهادة الحقوق الفرنسية.

صالون الأميرة نازلي فاضل

عرف سعد زغول الأميرة نازلي فاضل عن طريق الشيخ محمد عبده، وعن طريق صالونها عرف كثيرا من رجال الدولة والمجتمع، وأصهر إلي مصطفى فهمي رئيس الوزراء وتزوج ابنته صفية التي عرفت فيما بعد باسم صفية زغول ولقبت بأُم المصريين .

أول مَنْ تولي الوزارة من غير الباشوات

اختير سعد زغول وزيرا للمعارف (١٩٠٦)، وكان أول مَنْ تولي الوزارة من غير الباشوات، فقد كان في ذلك الوقت حائزا لرتبة البكوية فقط.

أحدث سعد زغول نهضة كبيرة في وزارة المعارف، وانحاز للتعليم باللغة العربية، وأرسل البعثات للخارج وشجع المتفوقين واصطفاهم، وزار المدارس في الأقاليم ويسر المجانية للفقراء المتفوقين، واختلف كثيرا مع المستشار الإنجليزي للمعارف، لكنه كان يستند إلي تقدير المعتمد البريطاني لورد كرومر له وفهمه وتعظيمه لشخصيته وسياساته ، وأثبت قدرة فائقة علي معالجة المسائل السياسية والعامة.

أحد المرشحين البارزين لرياسة الوزارة

ظل محتفظا بمنصبه بعد استقالة صهره (١٩٠٨) حيث شارك في وزارة بطرس غالي، وقد كان هو نفسه أحد المرشحين البارزين لرياستها.

وبعد اغتيال بطرس غالي استمر في وزارة محمد سعيد باشا (١٩١٠)، وكان هو نفسه مرشحا لرياستها أيضا، وقد تولى وزارة الحقانية فبعث فيها من روحه الإصلاحية، ثم ترك المنصب الوزاري (١٩١٢) بعد خلافات عنيفة مع الخديو عباس.

انتخابه في الجمعية التشريعية ووكالته لها

في ١٩١٣ تقدم لانتخابات الجمعية التشريعية في ثلاث دوائر ففاز في دائرتين منها في الوقت نفسه، وانتخب وكيلا للجمعية التشريعية، وقاد نزاعا حول قضية لمن تكون الرئاسة عند غياب الرئيس.. للوكيل المنتخب أم للوكيل المعين (وكان هو عدلي يكن باشا) ، وارتفع أدأؤه بمستوي نفوذ الجمعية التشريعية وتأثيرها، فلما قامت الحرب العالمية عطلت أعمال هذه الجمعية.

تأليف الوفد

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها تشاور مع أصدقائه في حث الإنجليز علي إعطاء الشعب حقه في الاستقلال، وقابل المعتمد البريطاني لهذا الغرض في ١٣ فبراير ١٩١٨ وكان معه زميلاه في الجمعية التشريعية : عبد العزيز فهمي وعلي شعراوي، لكن المعتمد البريطاني لم يحسن الاستماع إلي مطالبهم ، واعتبر هذا اليوم فيما بعد ذلك عيد الجهاد.

اندلاع الثورة والنفي إلى مالطا

تألف الوفد المصري برئاسته بأسلوب التوكيلات ونظم حركات عصيان سلمي وإضرابات (وواكبته تحركات سرية واغتيالات) فنفاه الإنجليز إلي مالطة في ٨ مارس ١٩١٩، فاندلعت ثورة ١٩١٩ في اليوم التالي مباشرة، علي غير توقع من الإنجليز ومن المصريين جميعا بمن فيهم سعد وأنصاره.

النفى للمرة الثانية

وأعيد من المنفي، وبدأت مفاوضات المصريين مع لجنة إنجليزية لكن المفاوضات فشلت فنفاه الإنجليز مرة ثانية (١٩٢١) إلى جزر سيشل، ولما عاد من المنفي استقبل استقبال الأبطال.

ليست مسألة أغلبية ، وإنما مسألة توكيل

وقد برزت الخلافات بين سعد زغلول وأعضاء الوفد الآخرين أثناء مناقشة مشروع ملنر، فقد أراد هؤلاء ممارسة حق الأغلبية في تقرير سياسة الوفد تجاه المشروع، ولكن سعد زغلول لم يكثرث بهذا الرأي، لأنه رأى ان هذا يخرج في رأيه عن حدود توكيل الشعب للوفد بالدفاع عن قضيته، وأطلق كلمته المشهورة: «المسألة ليست مسألة أغلبية، وإنما مسألة توكيل»، فأخضع سعد زغلول بهذه الكلمة القاعدة الديمقراطية للقاعدة القانونية، وكان في ذلك محقا.

وقد انحاز الشعب إلى الزعيم سعد زغلول باشا انحيازا مطلقا من ذلك الحين، وتكرست زعامته على الرغم من زملائه.

وفي عام ١٩٢١ قام الزعيم سعد زغلول باشا بفصل عشرة من أعضاء الوفد، ولم يتبق معه من المؤيدين سوي أربعة فقط كان منهم خليفته مصطفى النحاس باشا ، ومن الطريف أن النحاس باشا فصل في عام ١٩٣٣ ثمانية أعضاء من الوفد، ولم يبق معه سوي ثلاثة فقط، وأصبح هذا التقليد من خصائص زعامة الوفد.

وكان من نتيجة هذا أن أصبح المخالفون لسعد بمثابة تجمع سياسي رفيع وجاهز وشبه متجانس تأسس من خلاله حزب الأحرار الدستوريين.

تصريح ٢٨ فبراير والدستور والانتخابات

وتداعت بعد هذا أحداث سياسية مهمة وظفها الزعيم سعد زغلول باشا بذكاء بالغ وعبقرية مدهشة.

- أصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ بناء علي نصيحة عبد الخالق ثروت مصرحة باستقلال مصر فأطلق عليه سعد زغلول وصف «الاستقلال المنقوص».
- وتكونت لجنة لوضع الدستور فسمها سعد زغلول «لجنة الأشقياء».
- وصدر قانون الانتخاب وأجريت الانتخابات فخاضها سعد والوفد بتنظيم باهر، وقيادة طاغية، وظهرت نتائجها في مطلع ١٩٢٤، وقد حاز الوفد بقيادته على الأغلبية الساحقة.
- وتولي سعد زغلول رئاسة الوزارة وسمها «وزارة الشعب».
- واكتسب للشعب بالفعل حقوقا كثيرة علي حساب سلطة الملك والاحتلال.

سعد أو الثورة

وفي أثناء وزارته فاوض الإنجليز فيما عرف بمفاوضات سعد - مكدونالد، لكنه قطع المفاوضات حين وجدها لا تمضي في الاتجاه الذي يحقق للشعب أمانيه، وأجري سعد إصلاحات عديدة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، وعانى الأمرين من بقايا الاحتلال، وفلول البيروقراطية.

وفكر سعد في الاستقالة أكثر من مرة كانت آخرها تلك التي سبقت استقالته الفعلية بأسبوع، وفيها تجمع الشعب بكثافة يهدر أمام قصر عابدين «سعد أو الثورة»، واضطر الملك فؤاد إلي الخضوع لمطالبه مرة بعد أخرى، وجاء تحكيم النائب العام (البلجيكي) للمحاكم المختلطة لصالحه عندما ثار الخلاف حول صاحب الحق في اختيار أعضاء مجلس الشيوخ.

ولما رأي سعد زغلول أن التآمر الملكي قد بلغ حده بنقل حسن نشأت إلي الديوان وتعيينه رئيسا له بالنيابة قرر أن يسارع بإظهار رد الفعل الكفيل بأن يشعر الملك فؤاد بعجزه عن إزاحته عن منصبه، مادام متمتعاً بثقة الأمة ممثلة في البرلمان، وأن يستغل ظروف الأزمة كلها في تدعيم الحياة الدستورية، استكمالاً لما حققه في بداية عهده، حتي لا تصبح هذه الحياة عرضة لمثل تلك الدسائس، واعترض بشدة علي تعيين وكيل للديوان الملكي من خلف ظهر الوزارة.

ولم يقبل أن ينهي الأزمة إلا بعدما تقرر أن يوقع هو أمر تعيين وكيل الديوان الملكي حسن نشأت باشا في ذلك الوقت تصحيحاً للأمر الملكي الذي صدر من غير إمضائه، مما دل بوضوح علي أن هذه الأوامر الملكية لا تنفذ إلا بتوقيع رئيس الوزراء.

إنجازات وزارة الشعب

وقد عبر برنامج وزارة سعد زغلول في ١٩٢٤ عن أهداف نبيلة وواقعية في الوقت ذاته، منها علي سبيل المثال إصلاح الإدارة الداخلية، وتوزيع الضرائب توزيعاً عادلاً، وتشجيع الصناعات المصرية الحديثة العهد، وتنمية التجارة علي اختلاف أنواعها، ونشر التعليم بنوعيه الأولي والراقي، واتخاذ التدابير الاجتماعية اللازمة لحماية العمال.

وقد كان سعد زغلول منتبهاً في خطاب العرش للدورة الثانية إلي الشؤون الداخلية التي أولاها عناية فائقة حتي إن هذه العناية كانت محل سخرية ونقد جريده «السياسة» التي كتبت تقول إنه (أي سعد زغلول) تحدث في الشؤون الداخلية حديثاً مطولاً لا يكاد ينتهي، وتناول فيه من تفاصيل هذه الشؤون ما يجب أن يترك للإدارات الحكومية، لأنه لا يتصل بالسياسة العامة في قليل أو كثير،

وفي رأينا أن الدكتور عبد العظيم رمضان كان متحاملاً علي سعد زغلول حين نبه إلي تركيزه اهتمامه بالطبقة الوسطي وعدم بذل اهتمام مماثل بالطبقة العمالية، وهو ما عبر عنه بقوله إنه لم يجد في عهد سعد زغلول تشريعات عمالية لتخفيف وطأة النظام الرأسمالي الاستعماري علي العمال، بالرغم مما حفل به عهد سعد زغلول من إضرابات واعتصامات خطيرة.

تقييد حركة المندوب السامي

وبالإضافة إلي هذه التوجهات فقد نجح سعد زغلول في تقييد حركة المندوب السامي، والعمل علي التحرر منه، وتأكيد العلاقة الوثيقة بين مصر والسودان. كما

نجح في تأكيد النظام الدستوري مبني ومعني، والوقوف في وجه الحكم المطلق، وفي تحرير الحياة الاقتصادية من التبعية والسيطرة الأجنبية عليها، و في تشجيع الصناعات المصرية بصفة خاصة، وإفساح المجال أمام رأس المال الوطني، وفي العمل علي نشر التعليم، وتعميم الملكيات الصغيرة.

البرلمان الوفدي و الروح الوطنية

وكانت قرارات البرلمان الوفدي معبرة أشد التعبير عن الروح الوطنية التي أذكأها سعد زغول، فقد قرر البرلمان في عهده أن تلتزم الحكومة في مشترياتها بتفضيل منتجات الصناعة والزراعة الأهلية، وأن تشترط ذلك في مقاولات الأشغال العامة.

كما قرر البرلمان أن تشرع الحكومة في وضع نظام يجعل العملة المصرية منفصلة عن العملة البريطانية، لما في هذه التبعية من الخطر العظيم علي حالة البلاد الاقتصادية، وقرر التخلص من الدين العام تدريجيا بتخصيص كل ما يباع من أملاك الدولة لاستهلاك هذا الدين ، كما قرر ضرورة اختيار مندوبين مصريين يمثلون الحكومة لدي الشركات الأجنبية، وكان هؤلاء من الأجانب أو أشباه الأجانب.

ثم قرر بيع أكبر جزء ممكن من أطيان الحكومة لصغار المزارعين، وتشجيع وتنشيط الحركة التعاونية بإعطاء الحكومة قروضا لشركات التعاون، وأن تكون الإعانات التي تمنحها الحكومة للجمعيات الخيرية شاملة أيضا للجمعيات الخيرية المصرية، ومن العجيب أن هذه الإعانات كانت من قبل مقصورة علي الجمعيات الأجنبية.

رفضه المصالحة مع الأحرار الدستوريين

وقد ظلت علاقات سعد زغول بالأحرار الدستوريين متوترة طيلة مدة توليه وزارته، وقد شرح سعد باشا أسباب رفضه المصالحة مع الأحرار الدستوريين بعد ما رآه منهم في انشاقهم عنه، وذكر أنها عدم الثقة فيهم، واحتقار شأنهم، فقال: «لا

يمكنني الاتفاق مع أشخاص تزعزعت الثقة بيني وبينهم فيما يتعلق بموضوع توكيلي. هم يطلبون حقوقاً أقل مما تطلب الأمة، ونحن منتشبتون بكامل حقوقها»،

وضرب سعد باشا مثلاً لذلك تصريح ٢٨ فبراير فقال: إنه بينما يعتبره «أكبر نكبة علي البلاد»، فإن أصحاب التصريح يعتبرونه «استقلالاً في الداخل والخارج»، ولهذا «فلا يمكن أن نتفق مع أصحاب تصريح ٢٨ فبراير بأي حال من الأحوال، لأنهم في واد ونحن في واد، ولا يمكن أن يتفق النقيضان، ولا أن يجتمع الضدان»، ثم قال: «علي أننا إذا أردنا أن نتفق، فمع من نتفق؟ خبروني من هم الذين رأوا أن نتفق معهم، وما هي قوتهم في البلاد؟ إني أقول إنه ليس لهم أدنى قوة، ليس لهم أدنى شأن، ولا أعترف لهم بزعامة»،

ثم أعلن سعد زغلول أن الانتخابات هي الفيصل، «فليتوجه كل منا إلى الأمة في الانتخابات، ويعرض نفسه عليها تحت شعاره، فإذا كانت الأمة تنتخب فريقهم فحينئذ يتولون الأمر، ونتنحى نحن عنه، أما إذا كان الأمر بالعكس، فكفي الله المؤمنين القتال، سأذهب معهم إلى الأمة وهي تفصل بيننا، وهي خير الفاصلين».

الأزمة تتصاعد مع الملك

في يوم ١٥ نوفمبر ١٩٢٤ قابل سعد زغلول الملك فؤاد، وقدم إليه استقالته، بعد أن كاشفه بأن أناساً من كبار الموظفين المنتمين إلى القصر يستخدمون اسم جلالته لمحاربة الوزارة في الخفاء، ثم توجه بعد ذلك إلى دار البرلمان حيث أعلن نبأ استقالته في مجلس النواب، ثم في مجلس الشيوخ، وأرجعها إلى أسباب صحية، وقد كان من الطبيعي أن يدرك النواب والشيوخ أن في الأمر أزمة حقيقية، إذ لم يكن قد مضى أكثر من يومين علي افتتاح الدورة البرلمانية، بينما كانت (الشائعات) تملأ الجو عن وجود أزمة تهدد الوزارة بالسقوط.

عمّ الغضب النواب والشيوخ، وسارع مجلس النواب باتخاذ قرار بالثقة التامة بالوزارة، وقرر مجلس الشيوخ التوجه بهيئته الكاملة للسراي لإظهار شعوره وثقته بالوزارة، كما قرر تأليف وفد من الرئيس والوكيلين لمقابلة الملك والتماس رفض

استقالة الوزارة، ووضع هذا القرار موضع التنفيذ في الحال، فذهب الشيوخ جميعهم عقب الجلسة إلي القصر فقيدوا أسماءهم، وطلب الوفد النائب عنهم مقابلة الملك دون أن يكونوا بملابسهم الرسمية، وكان مؤلفا من: أحمد زيور باشا رئيس المجلس، وأحمد زكي أبو السعود باشا، وعلوي الجزار بك وكيل المجلس، فقابلهم الملك في الحال وأبلغوه قرار المجلس، وتأجيل الجلسات إلي أن تنتهي الأزمة، فاضطر الملك للإعراب عن ثقته هو الآخر بسعد زغول ورجائه في أن يعدل عن عزمه، وقال: إنه متفق مع البرلمان في القرار الذي أصدره في هذا الموضوع.

حادثة مقتل السردار تضطره إلى تقديم استقالته

ثم كانت حادثة مقتل السردار بمثابة المأزق الذي اضطر سعد زغول إلي تقديم استقالته حين وجد أن الأمور قد أفلتت من يد أبناء الوطن علي يد أبناء الوطن أنفسهم في نهاية نوفمبر ١٩٢٤ بسبب حادث مقتل السير لي ستاك، وسرعان ما قبل الملك استقالة الوزارة وكلف زيور باشا برياستها فرفع شعار «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»،

تصاعد الحقد على الحركة الوطنية

وشهد الوفد فترة عصبية تحالفت ضده فيها السراي والإنجليز مع الوزارة الضعيفة بقيادة زيور باشا، وأجريت انتخابات ثانية في ١٩٢٥ ففاز سعد، ورشح نفسه لرئاسة البرلمان في مواجهة عبد الخالق ثروت ففاز أيضا رغم أن الحكومة كانت متأكدة من فوز ثروت بعدما غيرت تركيبة المجلس، فاضطرت الحكومة إلي حل البرلمان بعد ساعات من انعقاده.

ومضت الأمور من تدهور إلي تدهور، وبدأ معارضوه يحسون قيمة وجوده وضرورة زعامته، ومال إليه الأحرار الدستوريون بعد يأسهم من الملك والاحتلال فاشتركوا في ائتلاف وطني ضم معهم الحزب الوطني، وأجريت انتخابات برلمانية في ١٩٢٦، وانتخب سعد زغول بعدها رئيسا لمجلس النواب (١٩٢٦) وتنازل عن رئاسة الوزارة لعدلي باشا الذي رأس ائتلافاً من الوفد والأحرار الدستوريين، ثم خلفه

في رئاسة الوزارة ثروت باشا، وظل سعد في مكانه زعيما للشعب ورئيسا للنواب حتى توفي في أغسطس ١٩٢٧ بعد مرض متكرر.

تمتع بمواهب وقدرات لا حدود لها

كانت للزعيم سعد زغلول باشا مواهب وقدرات لا حدود لها، وتأتي الخطابة في مقدمة هذه القدرات والمواهب، فقد كان خطيبا لا يباري.. يروي أنه تحدث أمام طلاب الأزهر لمدة ثلاث ساعات فلم يخطئ ولم يلحن ولم يتلجلج، وكانت النتيجة الطبيعية أن عشرة آلاف من طلاب الأزهر آمنوا بالرجل وساروا خلفه!

قالت مي زيادة تصف أثر حديثه في نفسها:

«سمعت سعدا متكلمًا علي المنبر فأدركت ثمة كيف الوجه العادي يصبح أجمل من الجمال، وأوفر إغراء، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبان فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف، وكيف ينفث الجفن الكثيف المتهدل علي بؤبؤ العين فينجلي البصر حساما استل من غمده، وتشيع النظرات أنصالا لا تشق الصدور.. صوت ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضي يتقاذفه ويلهو به وأنت من نشوتك لا تفيق، وكيف يرتفع الصوت الخافت، ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء، وتزمرج خلاله العواصف لتنجلي فيه إرادة شعب يقول: أنا.. إني موجود».

حظي بتخليد لم يحظ به أحد غيره

حظي الزعيم سعد زغلول باشا بتكريم وتخليد لم يحظ به أحد غيره علي مدي القرن العشرين كله، ولم يحدث لزعامه مصرية أن استمر تقدير دورها بعد وفاتها علي نحو ما حدث لزعامه سعد، وقد أعطاه الشعب من حبه ما لم يعطه لغيره حبا وعشقا، وقد قيل في ذلك العهد إن اسطوانة أم كلثوم التي غنتها بعد وفاته (وبعد امتناعها فترة طويل عن الغناء حزنا عليه) والتي رددت فيها قوله أنا انتهيت (وقد صاغها أحمد رامى شعرا) وزعت في ذلك الوقت نصف مليون اسطوانة.

وكان الصبية الذين لم يدركوا سن التمييز يظنون أن جثمانه شيع في بلادهم نظراً لأن كل مدينة وكل قرية خرجت في جنازة رمزية ضخمة لتشييع سعداً.

حظي بالإعجاب الشديد حتي من أعدائه

وقد ظل سعد زغلول يحظى بالإعجاب الشديد حتي من أعدائه، والوثائق الأجنبية شاهدة علي هذا، ولعل أروع عبارة قيلت في الدفاع عن سعد زغلول تجاه الانتقادات الكثيرة التي توجه إليه هي قول إسماعيل صدقي: «كان سعد زغلول رجلاً عظيماً، وكانت له عيوب لكنها كما يقول الفرنسيون كانت بمثابة العيوب الصغيرة التي تلازم الصفات الكبيرة».

خطابته حافلة بالمعاني القوية المبتكرة

ونحن نلاحظ أن قيمة الزعيم سعد زغلول باشا كخطيب لم تكن تقف عند الحماسة ولا عند السجع والجناس والطباق، ولا عند سلامة اللغة، لكنها في الحقيقة كانت تتخطي هذا كله إلي ما هو أكثر وزناً وقيمة، وهو أنها كانت حافلة بالمعاني القوية المبتكرة التي كان سعد باشا يقدمها في أناة ومهارة وكأنه يقدمها عفو الخاطر.

وعلي سبيل المثال فهو القائل: الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة، وقوله: إننا نريد للشعب أن ينظر إلي الحكومة نظرة الجند للقائد، لا نظرة الطير للصادق، وقوله: الاستقلال التام أو الموت الزؤام وقوله (الذي نسب فيما بعد إلي غيره) شرف لا أدعيه وتهمة لا أنفيها، وقوله: جورج الخامس يفاوض جورج الخامس.

ذروة البلاغة

وصلت البلاغة بأقوال الزعيم سعد زغلول باشا إلي درجة أن كل كلماته أصبحت قابلة لأن تحمل كل ما يمكن لها أن تحمل من معانٍ. فقد كان يصل إلي لب الفكرة في سرعة مذهشة، وليس في حديثه جمل اعتراضية ولا استثناءات، والدراسة التحليلية لعباراته تدل علي استخدامه تقنيات أسلوبية في غاية المهارة، فهو إذا أراد الحديث مثلاً عن قاعدة عامة وعن استثناءها أجهد فكره في أن يصل إلي الفارق الذي

يجعل الاستثناء لا يخضع للقاعدة، ثم بعد هذا يصوغ من القاعدة الواحدة قاعدتين، قاعدة للأصل وقاعدة للاستثناء ويجعل من القاعدتين صيغة لجملتين متساويتين معطوفتين، وحينئذ تظهر بلاغة سعد وقدرته علي قول الحكمة.

نفس عظيمة قادرة واثقة

لكن الأهم من كل هذه المواهب أنه كانت له نفس عظيمة قادرة واثقة، ويكفي للدلالة علي قدرة هذه النفس وسموها أنه بعد أن عين قاضيا ومستشارا بالاستئناف لم يجد حرجا في أن يسافر إلي فرنسا وأن يؤدي امتحان شهادة الحقوق ليحصل عليها ويعود إلي بلاده مؤهلا بما كان ينبغي أن يحصل عليه من مؤهلات في مرحلة مبكرة.

وضوح الرؤية

كان وضوح الرؤية أهم مميزات الزعيم سعد زغول باشا التي ساعدته علي النجاح في كل ما حققه وأنجزه ، وهي ميزة قد تبدو خطابية في المقام الأول، وقد تبدو علمية في المقام الأول أيضا، والواقع أنها تجمع بين كلا الوصفين وتمزج بينهما.

الوحدة الوطنية

كان إيمان سعد زغول بالوحدة الوطنية إيمانا حقيقيا، ويتفق المؤرخون علي أن هذا الرجل قد تمكن من توحيد الشعب وقيادته نحو الحضارة الحديثة، فضلا عن الحرية والاستقلال والديمقراطية، ولولا جهد هذا الرجل لتأخر تقدم مصر الحديثة سياسيا وحضاريا مراحل كثيرة.

التعلم المستمر وتمييز الواعدين

وقد ظل سعد زغول حريصا علي التعلم المستمر حتي مع تقدم سنه ومراكزه السياسية، وكانت حصيلة هذا التعلم المستمر كله مستوي رائعا من الفكر والأداء.

وكان سعد قادرا علي معرفة النفس البشرية، وتمييز النابغين والمخلصين والواعدين، ولا يمكن حصر الشبان النابهين الذين دفع بهم سعد إلي النجاح في الحياة العامة، سواء وهو وزير للمعارف أو وهو زعيم للوفد.

مذكراته تمثل أثرا أدبيا

تمثل مذكرات الزعيم سعد زغلول باشا أثرا أدبيا لا يقل أهمية عن أثر خطبه، ومن حسن حظ التاريخ المصري أن أسرة سعد وخلفاءه قد حافظوا علي هذه المذكرات التي انتقلت من يد إلي يد ثم إلي خزينة بنك، حتي أصبحت في حوزة مركز تاريخ مصر المعاصر الذي كان تابعا للهيئة المصرية العامة للكتاب، وقد نشر الدكتور عبد العظيم رمضان عددا من أجزاء هذه المذكرات، ولا يزال بعضها في حاجة إلي استكمال، وقد أصبح المركز تابعا لدار الكتب.

وفي مراحل كثيرة من تاريخنا رجع إلي هذه المذكرات كل من أرادوا الاستعانة بها في التأريخ للأحداث السياسية، وقد ورد في المذكرات المنسوبة للنحاس أنه رجع إليها ليقراً ما كتبه سعد زغلول عن إسماعيل صدقي حين احتدم خلاف الوفد مع صدقي، ووصف صدقي نفسه بأنه كان صديقاً لسعد.

وفي كتب أستاذنا مصطفى أمين المتعددة و مقالاته فقرات عديدة ومنتقاة من هذه المذكرات.

المذكرات تقدم مواد كثيرة للتاريخ الاجتماعي

ومع أن الأجزاء الأولى من مذكرات الزعيم سعد زغلول باشا لا تقدم معلومات سياسية ذات أهمية إلا أنها تقدم مواد كثيرة للتاريخ الاجتماعي كحركة السلع الزراعية وأسعارها، وتكلفة الزراعة، وحركة النقل والسكة الحديد، وعلاقات البيع والشراء، والأرباح المتحققة من الأنشطة الزراعية والتجارية وغيرها، وتعكس المذكرات أيضا طبيعة العلاقة بين أفراد النخبة المصرية في ذلك الوقت، ونشاط هذه النخبة الاقتصادي، ومصادر متعتها ولهوها ورحلاتها.. إلخ.

التعبير المرسل الحر

وعلي الرغم من أن معظم المذكرات كتب بطريقة التعبير المرسل الحر الذي يسجل الأحداث لوقتها أو يملئها بغرض تذكرها في مرحلة تالية، فإن صفحات كثيرة من هذه المذكرات المرسلة تتضمن تأملات في غاية الأهمية لحوارات صاحبها مع أنداده وتعليقه علي ما استشفه منهم مما حاولوا إخفاءه أو حاولوا إظهاره في صورة مناقضة للحقيقة، وهو ما يدلنا علي قدرات فائقة لسعد زغول في التعامل مع الآخرين واستكشاف باطنهم وما يخفونه.

روايته عن الأحداث السياسية تتسم بالدقة والأمانة

أما روايات سعد باشا عن الأحداث السياسية فتتسم بالدقة والأمانة، ولا تعكس رأيه فحسب، لكنها تعكس أيضا تفصيلات مذهلة عن مشاوراته و مراجعاته لنفسه في الفكرة قبل أن يصل إليها، وعن موازنته بين المزايا والعيوب في كل بديل من البدائل المتاحة أمامه للقرار.

القدرة على نقد الذات

وتحفل مذكرات الزعيم سعد زغول باشا بما يندر في غيرها من نقد الذات، وهو ما اتخذ بعض الحاقدين علي مكانة سعد سبيلا إلي الهجوم عليه، والزعم بأنه كان انسانا سيئا باعترافه هو نفسه.

والقارئ لما طبع ونشر من المذكرات يعجب من هذه القدرة علي نقد الذات وتأنيب النفس، وبالإضافة إلي كونها قدرة أدبية شجاعة فإنها قدرة نفسية لا تتأتي إلا بعد رياضة قاسية يروض فيها المرء نفسه علي القيم العليا والنظام والصرامة مرة بعد مرة.

لم ينف جهود مَنْ سبقوه

ومن كلمات سعد زغلول باشا الحاسمة الدلالة علي أنه كان من الذكاء السياسي بحيث لم ينف جهود مَنْ سبقوه: «لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه، بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد علي، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل عزيز فيها، وكذلك للمرحوم فريد بك».

كتابه غير المشهور

ينسب إليه كتاب ألفه في شبابه عن «فقه الشافعية».. أما خطبه فجمعت في أخريات حياته، ونشرت مختارات منها في كتابين مطبوعين.

كتب كثيرة عن حياته وسيرته

وضعت عن حياته وسيرته كتب كثيرة من أهمها كتاب الأستاذ العقاد «سعد زغلول سيرته وكتبه»، وكتاب عباس حافظ «تاريخ سعد باشا وكلماته»، وكتاب محمد إبراهيم الجزايرلي «آثار الزعيم سعد زغلول»، وكتب أخري لمصطفى الحكيم ومحمد الزين وعبد الرحمن البرقوقي، كذلك نشر الأستاذ عبده حسن الزيات المحامي ورئيس تحرير جريدة «كوكب الشرق» كتابا عنوانه «سعد زغلول من أقضيته».

هذا الفصل

نشر هذا الفصل على هيئة مقال مطول في جريدة الأهرام في ١٩٩٩ بناء علي تكليف الجريدة ، في مناسبة مرور ٨٠ عاما على ثورة ١٩١٩

الفصل الثاني

عباس محمود العقاد الأستاذ الأكبر

أبرز شخصية عربية في المجال الفكري في القرن العشرين

الأستاذ عباس محمود العقاد ١٨٨٩-١٩٦٤ هو أبرز شخصية عربية في المجال الفكري في القرن العشرين، ومع مضي الزمن تتضاءل القيمة التاريخية للسياسيين، وتزداد القيمة الفكرية لأهل الفكر، ويأتي العقاد علي رأس هؤلاء جميعا. والفرق بينه وبين من يلونه شاسع لأن العقاد وهب نفسه وحياته وجهده وعمره الطويل للفكر والفكر وحده، وقد كان بوسعه أن يلي من المناصب والمسئوليات أعظم ما يتخيل الإنسان أن يصل إليه، لكنه بحكم ثقافته كان يعرف أن هذا كله زائل، وأنه كله معطل له عن أعظم وظيفة وأعظم مكانة.

مكانة رفيعة صنعها بنفسه

احتفظ هذا الرجل لنفسه بمكانة رفيعة صنعها بنفسه وعرقه وجهده دون أن يبرز من علي أكتاف غيره، وقد وصل إلي ما لم يصل إليه غيره من دون أن يقف عند حدود في العطاء أو التجويد أو التجديد، وكان يعرف أن هذه هي طبيعة المعرفة، وكانت نوازعه المعرفية أقوى من أن تحدها ظروف، أية ظروف، أو أن تحدها اتجاهات، أية اتجاهات. وقد أخلص العقاد لفكره ولشعبه ولوطنه ولعقيدته، ويندر أن نجد بين أهل الأدب علي مدي كل العصور من أخلص لانتمااته علي النحو الذي أخلص به العقاد العصامي والعظامي الكبير.

نبغ وتسيد في كل ما مارس من فنون القول والمعرفة

وقد نجح الأستاذ عباس محمود العقاد ونبغ وتسيد في كل ما مارس من فنون القول والمعرفة، فهو الشاعر الذي لا يختلف علي شاعريته أحد من القدامى أو المحدثين، وهو الشاعر المجدد الذي خاض بالشعر مجالات بالقول لم تكن معهودة من قبله، وبلغ به الأمر أن تمكن من صياغة المواقف اليومية في أشعار جميلة عامرة بالفكر والتأمل وبالتصوير المتقن وبالإحساس المرهف، وديوانه «عابر سبيل» نموذج لهذه الإبداعية الرائعة.

شاعر للطبيعة و شاعرٌ للحِكمة

كذلك كان العقاد شاعرا للطبيعة يجيد تصويرها وحوارها والخروج من هذا الحوار بالمتعة والحكمة معا.

والعقاد بتكوينه الفكري شاعرٌ جكّم من الطراز الأول، فلسف الحياة و وظف الفلسفة في فهم الحياة وفي تصويرها وفي التعبير عن مشكلاتها وموقف الفنان منها.

والعقاد هو شاعر الحب والنسيب، كما أنه شاعر الفكرة اللامعة في المديح والثناء والمناسبات الاجتماعية والدعوات الإصلاحية.

الفنان الذي ارتفع بفن المقالة إلي آفاق الفكر

الأستاذ عباس محمود العقاد هو الفنان الذي ارتفع بفن المقالة إلي الآفاق التي جعلتنا الآن من الجيل الحاضر نمارس هذا الفن بنفس القدر من السهولة الذي نتعامل به مع أجهزة التلفزيون، وأصدق تعبير عن دور العقاد في فن المقال أنه وطأ هذا الفن لأهل العربية وجعله سهلا نهلا ولم يحدث هذا من فراغ وإنما حدث لأن العقاد ارتقي بفن المقالة من طرز تقليدية وإطارات ضيقة وعبارات مكررة وموضوعات محدودة إلي آفاق الحياة كلها حتي أصبح المقال أداة التعبير الفنية الأولى عند العرب المعاصرين قبل الشعر وقبل الرواية.

وبفضل جهد الأستاذ العقاد في كتابة المقال وتذليل صعوباته وتدريبنا جميعا علي قراءة ما كتب أمكن للأجيال التالية له ومنها جيلنا أن يوظفوا المقال للتعبير عن الفكرة وعن الخبر وعن قصة الخبر وعن التحليل الاجتماعي والاقتصادي والرياضي والفني والسياسي، وقد كان العقاد رائدا في هذا كله.

الفضل الأوفى في فن الترجمة الأدبية

والعقاد هو صاحب الفضل الأوفى علي فن الترجمة الأدبية، وهو الذي قدم لنا دراساته الأدبية الفنية التاريخية التي تناولت عظماء التاريخ، وعظماء التاريخ الإسلامي علي حد سواء، فهو الذي كتب عن محمد - صلي الله عليه وسلم - وكتب عن الصديق وعمر وخالد والإمام علي وذي النورين، كما كتب عن «جيتته» وغيره من أدباء الغرب، وكتب عن سعد زغلول أعظم كتاب متاح في جيله، كما كتب أيضا عن جحا كتابة وافية ومعرفة به سواء أكان حقيقة أم أسطورة.

وبفضل كتابات العقاد في التراجم قفز هذا الفن إلي الفنون المقدمة في الكتابة الأدبية والتاريخية علي حد سواء، بل مكن لهذه الكتابة أن تأخذ مكانها في الفن العربي بعد هذا في السينما والتلفزيون.

تاريخه ملحمة نادرة التكرار

وتاريخ حياة العقاد يمثل ملحمة نادرة التكرار؛ ولد في أسوان وانتقل إلي القاهرة، وعلي خلاف العادة في جيله فإنه تلقى تعليما مدنيا مبكرا دون أن ينخرط في الأزهر، لكنه مع هذا درس كل ما كان يدرسه الأزهريون.

وجد أن التعليم النظامي سيحد من حبه للمعرفة وشغفه بها

كان في وسع الأستاذ عباس محمود العقاد أن يواصل تعليمه المدرسي سواء علي التعاقب أو بعد فترة، لكنه انجذب بقدرة نفسية مميزة إلي المعرفة، ووجد أن التعليم النظامي سيحد من حبه للمعرفة وشغفه بها وتحصيله لها.

ولهذا السبب ، في المقام الأول، وليس بسبب الفقر أو ضيق ذات اليد ، انصرف العقاد عن التعليم النظامي وشهاداته وبدا له نور الحقيقة الذي هداه إلي مكانته التي كانت تنتظره ليكون بمثابة المعلم الأول في جيله والأجيال التالية.

استقلال الشخصية واستقلال الإرادة

قبل العقاد الوظيفة كبداية لاستقلال الشخصية واستقلال الإرادة، وعندما حقق هذين الهدفين، وأدرك أن الوظيفة ستعوق صعوده في سلم المعرفة أثر التحرر من الوظيفة ، وقرر في نفسه أن يكون هذا التحرر للأبد، وبالفعل فإنه اعتذر عن الوزارة ثلاث مرات ، و رفض كثيرا من الوظائف العليا لا لشيء إلا لأنها وظائف، ومن عروض الوظائف التي رفضها كان ذلك العرض بأن يعين مديرا لدار الكتب برغم كل ما قد نظنه من أن مثل هذه الوظيفة كانت تهيب له فرصا معرفية أوسع ونفوذاً أعرض وقدرة أو حتي علي أقل تقدير علي أن يقرأ ما يشاء وهو في مكتبه المهم في الدار، لكن العقاد كان قد أدرك «بكل ما في الإدراك من عمق» قيمة الوقت الذي يمكن أن يضيع بعضه في أمور روتينية لا تعود علي معرفته أو ثقافته بأي قدر أو قيمة مضافة. وهكذا كان موقف العقاد من رئاسة التحرير أيضاً، فعلي الرغم من أنه كان لفترات طويلة جدا بمثابة المحرر الأول في صحف كثيرة، فإن قوته وقوة قلمه كانت تكفيه وكانت تغنيه عن قبول منصب رئيس التحرير أو التفكير فيه.

ولم يكن العقاد معنيا بأن يكون واضع سياسة هذه الجريدة أو تلك، فقد كانت كلماته نفسها هي السياسة، وكانت شخصيته أقوى بكثير من أي إطار نظري يعبر عن أية سياسة أو استراتيجية.

فضل سعد زغلول باشا

وإذا كان من قواعد التاريخ أن كل زعيم من الزعماء يكتشف كاتباً من الكتاب، فقد كان العقاد من اكتشاف سعد زغلول، ومع أن العقاد لم يكن في حاجة إلي سعد زغلول لاكتشافه إلا أن اكتشاف سعد للعقاد كان من دلائل عظمة سعد وقوة شخصيته وراقي ذوقه وتمكنه من الفكر والحكمة والمعرفة.

وكان الزعيم سعد زغلول يسمي الأستاذ العقاد بالكاتب الجبار ويسمح له بمناقشته والجدل معه، وينهي الذين يحاولون أن يوقفوا العقاد عند أي حدود في الجدل معه.

عاش حياته برأس مرفوع

عاش الأستاذ العقاد حياته برأس مرفوع، وقد دفع ثمن رفع رأسه مقدما ومؤخرا، فقد دخل السجن في الثلاثينيات محكوما عليه بالعيب في الذات الملكية، وكان بإمكان العقاد أن يساوم لكنه بعقيدته من ناحية وبثقافته من ناحية أخرى، أدرك أن دخوله للسجن سيضيف إلي رصيده ولن ينقص منه، وهكذا دخل وخرج مرفوع الرأس، وقد ازدادت قامة القاعدة التي يقف عليها فما بالك بقامته هو التي لم تصل إليها قامة أخرى معاصرة أو لاحقة.

واختلف العقاد مع زعامة الوفد بعد سنوات من وفاة سعد زغلول، ولم يظلم النحاس نفسه ظلما بينا إلا بابتعاده عن العقاد، وقد كان من سوء حظ النحاس أن ابتعد عن العقاد لا كقلم مؤيد، بل كقلم هادٍ إلي الحق والصواب، ومن حسن الحظ أن وجود حياة ليبرالية تسمح بتعدد الآراء والأحزاب لم يحرم مصر من العقاد وفكره، بل إن العقاد وصل إلي عضوية مجلس النواب وعضوية مجلس الشيوخ وأصبح صوته مسموعا في البرلمان علي نحو ما كان مسموعاً في الحياة العامة والثقافية.

كتاباته السياسية قد ثقفت أمة بأكملها

لست أبالغ إذا قلت إن كتابات العقاد السياسية قد ثقفت أمة بأكملها، ونمت من الوعي السياسي في الأجيال التي تلقت عنه هذه الثقافة، ويكفي أن نذكر أنه استطاع أن يجاهر برأيه في مساوئ النازية والفاشية في الأيام التي شهدت صعود هذين التيارين وانتصارهما، لكن العقاد وحده ودون الآخرين من الكتاب السياسيين كان يبشر بانتصار الديمقراطية و بانتصار الحلفاء في النهاية، وهو ما حدث بالفعل، ولم يكن العقاد يغامر بأرائه، وإنما كان يدرك حقيقة إنسانية وفكرية لا يصل إليها إلا الذين قرأوا التاريخ ودرسوا تفاصيله، ولا يجاهر بها إلا الذين يدركون معني أمانة الكلمة ومسئوليتها ومسئوليتهم عن تبصير قومهم بحقائق الحياة بعيدا عن ضجيج

الإعلام وبريق المصالح، ومن حسن حظ مصر أن وجد فيها العقاد في تلك الفترة التي كانت المظاهرات تسير فيها إلى الأمام ترفع شعار «إلي الأمام يا رومل».

تميزت كتاباته بسعة الأفق والقدرة علي استشراف المستقبل

وعلي مدي تاريخ حياته تميزت كتابات العقاد السياسية بسعة الأفق ورحابة التفكير والقدرة علي استشراف المستقبل والاتعاض من الماضي، وتخلصت إلي أقصى حد (ممكن لبشر من المكافحين بجهدهم وعلمهم) من كل شوائب السلوك البشري الذي يضع العواطف الشخصية في الحسبان.

حظي بصداقات عديدة، وبتلاميذ نجباء متفوقين

وقد حظي العقاد بصداقات عديدة، كما حظي بتلاميذ نجباء متفوقين لا يزالون يذكرون فضله ويشيدون بذكره، كما حظي العقاد بعداوات طبيعية ومأجورة أيضا وبخلافات وقتية تحولت إلي معارك، وكان العقاد شرسا في حروبه ومعاركه، ومن حقه أن يكون كذلك لأن معاركه أثرت العقل العربي ثراء غير متوقع، كما أن كتاباته زودت هذا العقل والوجدان بما لم يستطع مصدر آخر أن يزودها.

أسلمت رايات النقد إليه مقاليدها

ويندر أن نجد في تراثنا المعاصر للعقاد موضوعا أو كتابا أو رأيا لم يحظ بتقييم العقاد مدحا أو قدحا، فقد كان الرجل، وقد أسلمت رايات النقد إليه مقاليدها، يؤدي حقوق أمانة النقد علي قلمه، وهكذا فإنه لم يقصر في حق القارئ في أن يدرك الحقيقة من الزيف، والتجديد من التقليد، والغث من السمين ويكفيها أن نشير إلي نموذج عابر لتعامل العقاد مع الآداب المطبوعة والمنشورة ذكرناه في أحد كتبنا (وهو كتاب: ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة)، فقد تلقى من توفيق الحكيم نسخة من كتاب له، وشاهد الكتاب في اليوم التالي معروضا، ولكن بغلاف مختلف أنيق التجليد، وكان هذا الكتاب هو «مسرح المجتمع»، وقد نقد العقاد هذا الكتاب في مقال بعنوان «بين

نسختين» وجعل المفارقة البسيطة بمثابة مدخل لما في كتاب الحكيم من مفارقات بني عليها نظراته الفنية في مسرح المجتمع.

وطد دعائم النقد الجديد

والحقيقة أن الإطار النظري للنقد الذي نمارسه اليوم، بل منذ عقود ثمانية، مدين للعقاد بالفضل فهو الذي وطد دعائم النقد الجديد بدءا بكتابه الشهير «الديوان في الأدب والنقد» الذي وضعه مع زميله المازني وعبد الرحمن شكري، والذي هاجم فيه أمير الشعراء أحمد شوقي وشعره بلا هوادة، وفتح للمتذوقين أبواب التذوق الفني والنقد الأدبي علي مصاريعها وحول النقد من تصحيح أخطاء لغوية، كما كان طه حسين علي سبيل المثال يفعل، إلي شيء آخر يرتبط بالفكر والفن علي حد سواء.

أفضاله في الميادين الخمسة

وبقدر ما تدين حياتنا الأدبية والثقافية للعقاد بفضلته في إحياء النقد بقدر ما تدين له بفضلته في تطوير الشعر، وبقدر ما تدين له في إعلاء شأن المقال بقدر ما تدين له في الأخذ بأيدي المثقفين إلي كل منارات الفلسفة الحديثة والقديمة علي حد سواء.

تناوله للإسلاميات والشخصيات الإسلامية

أما ميدانه تفوقه الخامس وهو تناوله للإسلاميات والشخصيات الإسلامية، فقد كان بمثابة الباب الوحيد الذي مكّن لهذه الموضوعات من الوجود الحي علي ساحة الفكر في القرن العشرين وما بعده، حيث جدد مفاهيم ومصطلحات ونظريات لم يكن للمسلمين عهد بها علي مدي القرون، وجاء العقاد، وهو من أبرز تلاميذ محمد عبده ليحمل راية التجديد الفكري في فهم الإسلام من دون أن يلوي عنق التشريعات الإسلامية ولا الحقائق التاريخية، ولكنه قدمها بفهم جديد متحرر من الدونية، ومن الشوفونية علي حد سواء. وقد كان العقاد أول من نبه إلي خطورة بعض مفاهيم الإسلام السياسي ضيقة الأفق التي حاولت البزوغ في وجود العقاد نفسه وأضرابه ولكنها لم تفلح في هذا البزوغ إلا بعد رحيلهم عن الحياة العامة والتأثير فيها.

هذا الفصل

نشر هذا الفصل في مجلة روز اليوسف في سلسلة عظماء المصريين.

الفصل الثالث

علي مصطفى مشرفة

الدكتور علي مصطفى مشرفة (١٨٩٨ - ١٩٥٠) هو أشهر العلماء العرب في العصر الحديث، كان عبقرية في فنه وعلمه وفي مجالات فكرية وثقافية عديدة.

نشأته وتأهله الذكي المبكر

ولد الدكتور علي مصطفى مشرفة في ٣١ يوليو ١٨٩٨، في مدينة دمياط، وفيها وفي القاهرة تلقي تعليمه العام، ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا حيث تخرج فيها ١٩١٧، وسرعان ما نال بعثة دراسية إلى بريطانيا حيث لحق بالسابقين عليه من خريجي الدفعات السابقة الذين لم يبتعثوا من فورهم بسبب الحرب العالمية الأولى، وقد درس في لندن وبرمنجهام وأثبت تفوقاً ملحوظاً مكنه من أن ينال علي التعاقب درجة البكالوريوس في العلوم مع مرتبة الشرف ١٩٢٠، ثم درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم فبراير ١٩٢٣، ثم درجة دكتوراه العلوم يناير ١٩٢٤.

وقد عمل بعد عودته الأولى في ١٩٢٣ بالتدريس في مدرسة المعلمين العليا، ثم في مدرسة الطب قبل أن يعين في الجامعة المصرية عند افتتاحها، وقد عين في درجة أستاذ مساعد نظراً لأن سنه كان دون الثلاثين، لكنه سرعان ما نال الأستاذية، ثم أصبح وكيلاً للكلية، ثم عين كأول عميد للكلية في ١٩٣٦، واستمر يشغل هذا المنصب حتى وفاته.

بحوثه العلمية

تركزت بحوث الدكتور مشرفة العلمية في موضوعات ميكانيكا الكم والميكانيكا الموجية، وتزاوج المادة والإشعاع، والنظرية النسبية.

رائد العلماء في الاتصال الجماهيري

بدأ اتصال مشرفة بالجمهور عن طريق الصحافة والإذاعة منذ مرحلة مبكرة، وكان مشرفة من الذين يجيدون هذا الاتصال، والتأثير في الجماهير بأحاديثه ومقالاته، وقد نشر أول كتبه «مطالعات علمية» سنة ١٩٤٣ عن مطبعة الاعتماد، وضمنه مجموعة من المقالات التي نشرها في الصحف والمجلات حتى سنة صدور الكتاب. وقد مثل هذا الكتاب طرازاً جديداً من مقالات الثقافة العلمية التي اعتمدت علي اللغة العالية الدقيقة، والاختصار في مقابل اعتماد السابقين علي التصوير والتشويق، وعلي التطويل من أجل الشرح أو تقريب الصورة، وقد ضمت فصول الكتاب مقالات عن الأرض، والكون، والشمس، والنور، والطاقة، وقوانين الطبيعة، والمصادفة، والسلام، وحرب الأثير.. إلخ، كما ضمت مقالين مهمين عن شخصيتين علميتين بارزتين هما: الخوارزمي وابن الهيثم، ومقالات أخرى عن السياسات العلمية والحياة في مصر ومستقبل العلم واللغة العربية العلمية، والعلم والصوفية، والعلم والشباب.

نشر الثقافة العلمية

وسرعان ما نشر مشرفة كتاباً ثانياً في هذا الإطار عام ١٩٤٥ (أي بعد عامين)، وقد جعل عنوانه «نحن والعلم» وضمنه بعض المقالات عن التأليف العلمي والثقافة العلمية والرأي العام، وعلاقة العلم بالمجتمع، وتنظيم البحث العلمي، والتعاون الدولي للعلماء. ومضي مشرفة في ذلك العام خطوة أوسع فنشر كتابين آخرين في موضوعين علميين مهمين، وكانت كتابته في هذين الموضوعين بمثابة الكتابة الأولى علي هذا المستوي في اللغة العربية، وقد قدم كتابه «النظرية النسبية الخاصة» عن

لجنة التأليف والترجمة والنشر، أما كتابه «الذرة والقنابل الذرية» فقد قدمه عن مكتبة الجيل الجديد.

وبعد عام واحد نشر مشرفة خامس وآخر كتبه في هذا المجال وهو كتاب «العلم والحياة»، وقد ضمنه مجموعة من الأحاديث الإذاعية والمحاضرات التي كان قد تناول فيها علاقة العلم بثمانيه مجالات أخرى من الحياة، هي: السياسة، والصناعة، والمال، والشباب، والعروبة، والأخلاق، والدين، وأخيراً بالحياة، وهو عنوان الكتاب نفسه، وقد ضمنه بالإضافة إلي هذا مقدمة وخاتمة بلور فيهما آراءه فيما يتعلق بمكانة العلم من الحياة. ولاشك في أن الأفكار التي عرضها الدكتور مشرفة من خلال هذا الكتاب وما سبقه قد لعبت دوراً كبيراً في صياغة أفكار النخبة المصرية نحو العلم الطبيعي الذي لم يكن قد احتل مكانة بعد في المجتمع المصري الحديث. ويمكن القول بأن الدكتور مشرفة بشخصيته ونشاطه قبل مقالاته وكتبه ومحاضراته، قد أعطي صورة مشرقة لإمكان اندماج العلم الحديث في المجتمع المصري وقيامه بدور فعال من أجل التقدم، علي أننا لا بد أن ننتبه إلي سعة وفعالية المساحة التي أتاحتها المناخ الليبرالي لمشرفة ليقدّم هذه الصورة دون تعويق أو اشتراطات مسبقة.

المؤسسات العلمية الوطنية

كان الدكتور علي مصطفى مشرفة صاحب فضل [منفرد أو مشترك] في نشأة كثير من المؤسسات العلمية المصرية، وقد أسهم في إنشاء الأكاديمية المصرية للعلوم، والمجمع المصري للثقافة العلمية، وكان عضواً في المجمع العلمي المصري.

هواة الموسيقى

كان الدكتور علي مصطفى مشرفة خبيراً بالموسيقى، وأسهم في إنشاء الجمعية المصرية لهواة الموسيقى الغربية، كما أسهم في تنظيم مواسمها الثقافية والفنية، وأسهم في تقديم أول أوبرا باللغة العربية. وله ترجمة شعرية رائعة لأحد نصوص الموسيقار العبري مندلسون ١٨٠٩-١٨٤٧.

التراث العلمي العربي

إلى الدكتور مشرفة يعود فضل كبير في تنبيه المجتمع إلى العناية بالتراث العلمي العربي، وكان رائداً في إحياء إنجازاته وتحديثها وتقديمها في مقررات دراسية لطلاب العلوم. وكعادته فإنه ضرب بسهم مبكر في هذا النشاط وقد أشرك تلميذه الأثير الدكتور محمد مرسي أحمد معه في تحقيق كتاب «الجبر والمقابلة» لمحمد بن موسى الخوارزمي، وقد طبعت كلية العلوم بالجامعة المصرية هذا الكتاب عام ١٩٣٧، وقد ضمن هذا الكتاب بحثين رائدين في مجال تاريخ العلم الأول عن الجبر قبل الخوارزمي، والثاني عن الخوارزمي وكتابه. وكان ينتوي إنشاء كرسي في كلية العلوم لتاريخ العلم عند العرب. واشترك الدكتور مشرفة من خلال الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية التي أسسها في عام ١٩٣٦ في إقامة اجتماع تخليدي لذكري الحسن بن الهيثم (١٩٣٩)، وقد أشرك فيه زملاؤه الرياضيين بالإضافة إلى أستاذ الفلسفة الإسلامية الشيخ مصطفى عبد الرزاق، وقد نشرت الجمعية المذكورة مجلداً تذكاريًا تضمن المحاضرات التي ألقى في هذا الاجتماع.

المواسم الثقافية للهينات الأجنبية والمصرية

اسهم الدكتور مشرفة في المواسم الثقافية للاتحاد المصري الإنجليزي، وألقى في المجموعة الأولى من محاضرات هذا الاتحاد محاضرة قيمة عن الحياة والحركة الفكرية في بريطانيا (١٩٤١)، واشترك كذلك في المواسم الثقافية للجامعة الأمريكية والمجمع المصري للثقافة العلمية الذي كان من مؤسسيه، واشترك من خلال جامعة القاهرة (١٩٤٦) في تخليد ذكرى الدكتور محجوب ثابت.

الجهود المعجمية

اشترك الدكتور مشرفة في مرحلة مبكرة (١٩٣٨) مع الأستاذ محمد عاطف البرقوقي في وضع قاموس علمي إنجليزي عربي مبسط أقرب ما يكون إلى قائمة مصطلحات باسم «مختارات ترجمة العلوم»، وقد طبعت مطبعة كوي.

قوائم أعماله ومقالاته

كان من فضل الله علينا أن وفقنا في كتابنا عن مشرفة منذ أكثر من أربعين عاماً إلى نشر بيلوجرافيا كاملة لكل أعماله الفكرية بما فيها المقالات ومجموعة أحاديثه في إذاعة الحكومة ومحطة إذاعة الشرق الأدنى للإذاعة العربية في الأعوام التي شارك فيها في ١٩٣٨ و ١٩٣٩ و ١٩٤٠ و ١٩٤١ و ١٩٤٥ و ١٩٤٨ و ١٩٤٩، وكذلك مقالاته العديدة في صحف الأهرام والمقتطف والجهاد والدستور والأساس والزمان، ومجلات المصور والجديد والرسالة والهلال ومجلتي والمجلة الجديدة وكليوباترا والعلوم والشئون الاجتماعية والإصلاح الاجتماعي والحديقة والمنزلة، فضلاً عن مجلة تاريخ العلوم ومجموعة أبحاث الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية، والكتاب السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية.

الكتب المدرسية والمراجع الجامعية

أسهم مشرفة بحكم مكانته العلمية ومنصبه كعميد لكلية العلوم في وضع مجموعة كتب دراسية مرجعية متميزة في علوم الرياضيات المختلفة، وقد اشترك في وضع هذه الكتب مع زملائه في الجامعة، أو في وزارة المعارف. فاشترك مع محمد إلهامي الكردي في وضع كتاب «الهندسة الوصفية» (١٩٣٧)، ومع عبد الرحمن فهمي في وضع كتاب «الميكانيكا العلمية والنظرية» (١٩٣٧)، ومع محمد مرسي أحمد ونصيف سعيد في وضع كتاب «الرياضة البحتة» (١٩٣٩)، ومع عبد الرحمن كامل فهمي في وضع كتاب «الهندسة المستوية والفراغية» (١٩٤٤)، ومع أيضاً في وضع كتابي «حساب المثلثات» (١٩٤٤)، و«الهندسة وحساب المثلثات» (١٩٤٧).

النشاط العلمي والاجتماعي في الجامعة

كان الدكتور مشرفة مغرماً بنقل صور النشاط العلمي والاجتماعي في المجتمع البريطاني إلى الجامعة المصرية، وكان ينظم في بيته يوماً مفتوحاً كل شهر، كما كان يعني بكل صور الأنشطة الجامعية والحضارية، وبالرحلات العلمية والترفيهية علي حد سواء، وقد نظم عدداً كبيراً من المناظرات التي ناقشت كثيراً من القضايا

الخلافة ، وكان كعادة المناظرات يأخذ الجانب البعيد منطقيا عن تكوينه أو تخصصه فيفضل الأدب علي العلم كما في مناظرته الشهيرة مع الدكتور طه حسين علي سبيل المثال، ومن قبيل هذه المناظرات دارت معركة طريفة بينه وبين صديقه الدكتور أحمد أمين حول مقام الإنسان في الكون، وقد دارت المعركة (١٩٤٣) عندما أعاد مشرفة نشر مقال كتبه في (١٩٢٨) تحت عنوان «سياحة في فضاء العالمين»، وقد علق عليه أحمد أمين في الثقافة بما استنتجه من أن أرضنا لا تساوي في هذه العلوم قطرة من البحار، وأنه أدرك مدي غرور الإنسان حين اعتقد أنه أرقى مخلوق علي وجه العالم.. واستمر أحمد أمين في استعراض عدد من الأفكار الفلسفية التي استثارها في خياله مقال مشرفة وتصويره للعالم الذي يحيط بنا دون أن ندري حقيقته، ورد مشرفة بالحديث عن مقام الإنسان في العالم، وبالقول بأنه مع أن نسبة حجم الإنسان إلي حجم العالم تصلح لأن تكون تعريفا للصفير الرياضي، فإن في ذلك الجرم المتناهي في الصغر أكبر معجزة في الكون بأسره، وحبذا مشرفة رأي الأسقف الإنجليزي باركلي القائل بأن حقيقة الكون نفسية لا موضوعية. وقدم مشرفة أدلته علي المقام الرفيع للإنسان للكون بما يتعارض كلية مع فكرة أحمد أمين، وأشار إلي أن مجد البشر لا يقوم إلا علي القبس المقدس الذي ميز الإنسان علي الحيوان وهو القوة الروحية التي تحرك حب الحق وحب الخير والجمال، وأن ما حصل عليه الإنسان من العلم ونتائجه لم يأت إلا علي قدر طلبه للحقيقة وشغفه بالحق.

الإصدارات المتتالية لكتابنا عنه

- الإصدار الأول : مشرفة بين الذرة والذروة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ (وقد نلنا عنه جائزة الدولة التشجيعية)
- الإصدار الثاني : سيرة حياة علي مصطفى مشرفة : مشرفة بين الذرة والذروة ، ٢٠٠١، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- الإصدار الثالث : مشرفة : سيرة حياة ، دار الشروق ، ٢٠٠٨، القاهرة.

مذكراته

- يوميات مشرفة، بتحقيقنا وتقديمنا ، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣.

وفاته

توفي الدكتور علي مصطفى مشرفة في ١٦ يناير ١٩٥٠

الفصل الرابع

الدكتور أحمد زكي العالم الأديب

أسباب خلوده : الإخلاص والتفاني والتجويد

تمر هذا العام ١١٠ سنوات علي ميلاد الدكتور أحمد زكي (١٨٩٤ - ١٩٧٥)، بينما لا يزال الرجل حاضرا في الأذهان وفي الوجدان علي حد سواء، ولعل السبب في هذا يعود إلي ما تميزت أعماله الفكرية به من درجة كبيرة من الإخلاص والتفاني والتجويد والالتقان حرص عليها في كل ما أنجز، ولهذا فقد كانت النتيجة الحتمية هي: الخلود، ولعل السبب في هذا التميز المستمر الذي قاد إلي الخلود يرجع إلي عبقرية نادرة رزقت التفوق في الأدب والعلم، وفي البحث والعرض، وفي التفكير والتعبير، وفي الوصف والتذوق، وفي النقد والتعليق،

وربما يعود السبب في هذا إلي أن صاحب هذه العبقرية كان حريصا عليها وعلي أن يوظفها من أجل الإنسانية حتي لو بدا أنه وظفها من أجل القومية أو الوطنية فحسب، ولكن النظر الدقيق يدلنا علي أن الإخلاص في العمل من أجل الرقي الفكري في المجتمع الإقليمي أو القومي، يؤدي في النهاية إلي محصلة العمل من أجل الإنسانية، والتعاون الدولي، والتفاهم الإنساني، وقبول الآخر، وبقدر ما يؤدي إلي ارتفاع محصلة هذه الميادين فإنه يؤدي إلي مصلحتها أيضاً.

الإيمان بالعلم بلا دروشة ولا توظيف

تميزت كتابات الدكتور أحمد زكي في العلم بتعبير واع عن إيمان عميق من دون خلط للعلم بالدروشة أو الأهداف السياسية أو الأيديولوجية، كما تميز عرضه بصفاء العبارة، ونسوج الفكرة، وذكاء التناول، والقدرة علي التصوير والتقريب والتبسيط، وقد كان واحدا من أبرز رواد الثقافة العلمية الحديثة في جيله، وكان واحدا من أبرز

الذين تولوا ترجمة وتعريب عيون الآداب والعلوم والحضارة الأوروبية ونشرها في لغة عربية جميلة.

والواقع أن فهم التاريخ الأدبي والفكري لأي كاتب أو مفكر يزداد عمقا وقيمة إذا ما أخذ في الحسبان حسابات البدائل التي كان من الممكن لصاحبها أن ينجزها بفضل ما رُزق من مواهب وقدرات، وفي حالتنا فإننا نستطيع بسهولة أن نتصور مصير أحمد زكي لو أنه حرص علي مستقبله الوظيفي في مصر كرجل من رجالات التعليم البارزين، وقد تخرج في مدرسة المعلمين العليا (١٩١٤) في دفعة متميزة من أقرانه، وقد كان في وسع الدكتور أحمد زكي وقد انقطع السبيل أمامه في الابتعاث بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى، واقتصرت فرصه الوظيفية علي العمل بالتدريس، وقد نجح فيه نجاحا بارزا جعل بعض أصحاب المدارس الخاصة يعهدون إليه بمسئولية الناظر في مدرسة ثانوية ولما تمض علي تخرجه سوي سنوات قليلة، كان في وسع أحمد زكي أن ينصرف بكليته إلي أداء دور تربوي تعليمي ينتهي به إلي منصب كبير من مناصب وزارة المعارف، ربما لا يقل عن منصب وكيل الوزارة، وربما يكون هو منصب الوزير نفسه، وقد وصل عدد من أقرانه بالفعل إلي هذين المنصبين في نهاية خدمتهم الوظيفية، لكن روح التعطش للعلم هي التي قادت أحمد زكي إلي التقدم للبعثة مرة بعد أخرى حتي فاز بها وخرج إلي العالم الغربي.

روح التعطش للعلم

وقد كان في وسع الدكتور أحمد زكي أن يقف بالعلم الذي يحصله عند المستوي الذي كان مطلوبا (بل أكثر من مطلوب في ذلك الوقت)، لكنه كان حريصاً علي أن يتجاوز درجة بكالوريوس العلوم (التي كان لا بد له من أن يحصل عليها لأن شهادة المعلمين العليا لم تكن معادلة لدرجة بكالوريوس العلوم البريطانية علي نحو ما تحقق فيما بعد عقد من الزمان في شهادة بكالوريوس العلوم التي تمنحها جامعة القاهرة.. وذلك بفضل مشرفة وأحمد زكي وأقرانهما) والماجستير إلي درجة الدكتوراه أيضا،

وقد كان في وسع أحمد زكي مرة ثالثة أن يقف عند حدود درجة الدكتوراه التي لم يكن الحاصلون عليها يتجاوزون أصابع اليدين، وبخاصة أنه كان أول مصري

حصل عليها في تخصص الكيمياء، لكن أحمد زكي أثر أن يكون ثالث مصري يجتاز البحوث والدراسات المؤهلة لأعلي درجة علمية في العالم في ذلك الوقت وهي درجة دكتوراه العلوم .

بحوثه النظرية والصناعية والتطبيقية

وقد تطلب هذا كله من أحمد زكي بحوثا نظرية ومعملية وصناعية وتطبيقية أداها باقتدار في إنجلترا وألمانيا علي حد سواء، كما تطلب هذا منه إلماما بكثير من مناهج البحث العلمي، ومن اللغات القديمة والحديثة علي حد سواء، وكان الرجل عند حسن ظن نفسه به، فإذا به يتوج حياته العلمية بأعلى الشهادات العلمية المتاحة في ذلك الوقت، ومنذ ذلك الوقت.

ومن الطريف أن الدكتور أحمد زكي بذل كل هذا الجهد بينما كان هو نفسه في وضع قريب من أن يكون بمثابة المرجع الأول في الكيمياء في وطنه بفضل انتشار ترجمته القديرة والمبكرة (بالاشتراك مع زميله الكردي) لكتاب «مبادئ الكيمياء»، وهو الكتاب الذي نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر التي كان أحمد زكي نفسه أحد أقطابها، وقد طبع في أكثر من عشرين طبعة.

صاحب رسالة

هكذا كان الدكتور أحمد زكي في عقده الثالث (١٩١٤ - ١٩٢٤) صاحب رسالة يعمل من أجلها، يبيث العلم الجديد في وطنه من خلال الترجمة، وينشر الترجمة من خلال مؤسسة ناجحة يقوم عليها مع زملائه، ويمارس التدريس باقتدار، ويضع عينه علي البعثة وينالها ويوجهها لأكبر درجة من التوظيف المفيد للعلم والتعليم الجامعي في وطنه.

ويعود أحمد زكي إلي وطنه وهو في النصف الأول من عقده الثالث:

■ فيملاً الدنيا نشاطا في جامعته الناشئة.

- وفي الوقت ذاته فإنه حريص علي أن يغذي صفحات المجلة الثقافية الأولى «الرسالة» بكتاباته وبترجماته.
- وهو يقدم تاريخ العلم بأسلوب مشوق، كما يقدم العلم نفسه بأسلوب مبسط.
- وهو يبذل من نفسه جهداً كبيراً لكي يفيد أبناء وطنه بهذا الذي يكتبه لهم أو يترجمه أو يحدثهم عنه.
- وهو يخلق تياراً من الوعي العلمي الأصيل الذي لا يمكن له أن يضمحل ولا أن يندحر ولا أن يتقلص تحت أي ظرف من الظروف.

يقوم الدكتور أحمد زكي بكل هذا الجهد عن وعي كامل بأهمية هذا الدور الذي نذر له نفسه، ويصبح لأحمد زكي تلاميذ مخلصون محبون، يرون فيه المثل الأعلى، ويرون فيه الأستاذ الحبيب، حتي إن القسم الذي يتولاه أحمد زكي يبدأ في استقطاب طلاب الكلية جميعاً بفضل الحب الذي اكتسبه عالماً وأكسبه للمادة التي يدرسها رغم صعوبتها ورغم جفافها.

أنشطة الجامعة

أسهم الدكتور أحمد زكي في أنشطة الجامعة بكثافة واقتدار، وكان واحداً من عشرة علي الأكثر كان لهم أكبر الأثر في بث الروح الجامعية الصحية في أول جامعة مصرية حديثة. وتتشعب علاقات أحمد زكي بالمجتمع الثقافي والتربوي من حوله فيفيد بعلمه وبفكره هنا وهناك، ضاربا المثل بالعالم الحقيقي الذي يؤثر في مجتمعه علي نحو شفيف وكثيف.

أول مدير مصري لمصلحة الكيمياء

خطا الدكتور أحمد زكي خطوة أخرى بعد بداية عقده الرابع بقليل، حيث يصبح أول مدير مصري لمصلحة الكيمياء (١٩٣٦)، ويتولى باقتدار شديد تمصير هذه المصلحة وضبط علاقتها بالمجتمع، وتأسيس الاعتماد علي الكيمياء في المجتمع، وهو ما يعني أن يكون للعلم دور متزايد من خلال التحليل الكيميائي الذي تقوم به

معامل المصلحة، وقد شهد ذلك العصر تصاعدا كبيرا في دور الكيمياء في المجتمع المصري، وفي كل المجتمعات.

أعظم إنجازاته العلمية تأسيس معهد للبحوث العلمية

ومع بداية عقده الخامس يتولى أحمد زكي أكبر وأعظم مناصبه العلمية حيث اختير (١٩٤٥) ليكون المسئول الأول عن معهد فؤاد الأول للبحوث العلمية (المركز القومي للبحوث الآن)، ليرسم لبلاده سياسة علمية وتكنولوجية لاتزال بلاده عاجزة عن أن تنفذها علي نحو ما رسمها في برنامج مكتوب ومنشور .

وقد خطا الرجل بالسياسة العلمية والتكنولوجية خطوات واسعة شملت إقامة مباني المركز القومي للبحوث قريبا من الجامعة في حرم كبير، وبداية البعثات العلمية في التخصصات التكنولوجية، وأقام روابط علمية وبحثية وقانونية مع المعاهد المثيلة في الخارج، وانتفع بكل الخبرات في تأسيسه للمعهد العظيم.

ومن الحق أن نشير إلى أن الدكتور أحمد زكي كان سباقا في زمنه إلي حد بعيد، ولعل قصة زيارة وزير الإرشاد القومي في أول عهد الثورة لهذا المعهد تدلنا علي مدي ما كان أحمد زكي يتمتع به من سبق لظروف عصره، فقد هال الوزير أن يخصص كل هذا المبني من أجل البحوث العلمية، وقال قولته المشهورة: «إن الأولي أن يحول هذا المعهد إلي مدرسة أو مستشفى».

رئاسة تحرير مجلة الهلال

وفي هذا العقد الخامس من عمره أتيح لأحمد زكي أن يثبت نفسه في مجال الفكر إثباتا متفردا ومتميزا، حيث عهد إليه أصحاب مجلة «الهلال» برئاسة تحريرها، فإذا هو بثقافته واطلاعه وهوايته وقدرته علي الكتابة للجمهور ينهض بهذه المجلة نهوضا كبيرا تدل عليه أرباحها وعوائدها، وهي في واقع الأمر مجلة ثقافية ذات رسالة لكنها تصدر عن مؤسسة لها في البداية والنهاية طابعها التجارية. وقد كانت الثورة التي

أحدثها أحمد زكي في الهلال متعددة الجوانب في الشكل، والمضمون، والقطع، والترتيب.. إلخ.

توليه الوزارة و رئاسة الجامعة

وقبل أن ينتهي العقد السادس من عمر الدكتور أحمد زكي أتيح له منصبان مهمان توجا حياته الوظيفية والسياسة، فقد اختير وزيرا للشئون الاجتماعية في وزارة حسين سري قبل قيام الثورة، وكأنما كان هذا الاختيار تعبيراً عن استحقاقه لمكانة لا يزال بريقها يتلألأ أمام عيون الناظرين.

ثم اختير الدكتور أحمد زكي - وهذا هو الأهم - ليكون المدير السادس لجامعته بعد أساتذته وأصدقائه: أحمد لطفي السيد، وعلي باشا إبراهيم، وإبراهيم شوقي، ومحمد كامل مرسي، ومحمد عبد الوهاب مورو.

وقد جاء اختياره مديراً للجامعة في أحلك الأوقات وأصعبها علي الجامعة حين كان الوطن يتحول رغم إرادته من الديمقراطية إلي الدكتاتورية، ومن الليبرالية إلي الشمولية، ومن التعددية إلي العسكرية، وليس بالإمكان الزعم بأن أحمد زكي نجح في تجنيب الجامعة آثار هذا التحول، لكن الأمر المؤكد أن أحمد زكي نجح باقتدار في جزئية مهمة، وهي أن يقنع الطلاب الشباب بسلوكه ويتضحيتة بنفسه بفكرة أن العالم الحق والأستاذ الجامعي الحق لا يمكن أن يكون أداة للحكم في فرض الدكتاتورية علي الجامعة.

هكذا ضحي أحمد زكي بنفسه من دون أن يكون هو نفسه ضحية لمطامح شخصية قصيرة النظر، ودون أن يكون ضحية لخدعة طويلة النظر، لكنه كان واعياً كل الوعي لأن اللحظة التي شهدها كمدير الجامعة تفرض عليه أن يضرب المثل في الانحياز للقيمة مع ما يترتب علي هذا الانحياز من ظلم فادح أو إهانة مقنعة متوقعة له علي يد النظام.

حافظ للمؤسسة الجامعية على رونق ذي بريق في أزمة مارس

ومن الإنصاف أن نشير إلي أن أحمد زكي قد أدى هذا الدور بنفس راضية، ومن دون أن يتاجر به، وربما رأي نفسه أحسن حالاً من صديقه السنهوري الذي لقي محنة كبيرة في ذلك الوقت الذي كان يشغل فيه منصب رئيس لمجلس الدولة.

وفي واقع الأمر فإن محنة الدكتور أحمد زكي لم تكن بأقل من محنة صديقه الدكتور السنهوري لولا أنه أثر أن يطويها في نفسه ، وأن يحافظ للمنصب الذي كان يشغله (كرمز أعلى للمؤسسة الجامعية) علي رونق لا يزال له بريقه، ولهذا فإن أبناء الجامعة الذين عاصروا الموقف اختزنوا الموقف في ذاكرتهم وقدروا لأحمد زكي دوره وصبره ليكون عاصما لهم من الظن بسيادة صورة بعض أساتذة الجامعة الذين يصورون لأنفسهم وظائفهم علي أنها وظائف مرتبطة بأمن الدولة، أو بالأمن السياسي كما كان يسمى في ذلك الوقت.

محنة الديمقراطية في ١٩٥٤

ومن عجائب الأقدار أن الدكتور أحمد زكي كان في أثناء محنة الديمقراطية في ١٩٥٤ يتولى أمر الجامعة الأولي علي حين كان زميلاه في رئاسة الجامعتين الآخرين قمتين آخرين من قمم الفكر في جيلهما وهما: محمد كامل حسين، ومحمد عوض محمد، ومن عجائب الأقدار أيضا أن ثلاثتهم مع اختلاف تخصصاتهم (في جراحة العظام، والكيمياء، والجغرافيا) كانوا من أصحاب القلم والأدب الرفيع الذي ارتقي بهم هم الثلاثة إلي عضوية مجمع الخالدين.

رئاسة وتأسيس أفضل مؤسسة ثقافية مشعة

يصل أحمد زكي إلي سنه الذهبية في ١٩٥٤، وهو مهياً لأن يكون المثقف الأول لأمتة العربية جمعاء، فقد كانت قدرته علي العطاء لا تزال متأججة في الوقت الذي كان جيل أسلافه المباشرين (العقاد وطه حسين والزيات وهيكل) قد أنهك بعد جهد جهيد يفل عزائم أولي العزم، وهم الذين لم يكفوا عن بذل هذا الجهد منذ أول القرن،

وتتفسح مكانة قائد الفكر الأول بسماع أمام الدكتور أحمد زكي شريطة أن يؤدي الوظيفة من دون أن يحصل علي اللقب، ولم يكن أحمد زكي يمانع في هذا، لكن ظروف وطنه لم تكن لتسمح به، ولأن الحياة لا تسير بتصوراتنا ولا طبقا لها، وإنما تسير بإرادة قوة قاهرة قادرة علي أن تدرك ما لا يدرك، فإن القدر يقود دولة الكويت الشقيقة الناشئة إلي أن تتوجه أحمد زكي كي تدعوه ليؤسس فيها أكبر وأعظم مؤسسة ثقافية عربية معاصرة وهي مجلة العربي.

وقد نشأت هذه المؤسسة بالفعل على أفضل ما يمكن أن تكون المؤسسة الثقافية المشعة بكل ما تمثله من فكر وعلم وثقافة وتربية وتعليم وانفتاح، وإذا عصير حياة هذا العالم الفذ يصاغ مرة أخرى صوغا جديدا علي أرقى ما يكون، وعلي أفضل ما يكون، وعلي أخطر ما يكون في هذه المؤسسة الثقافية.

وإذا بأحمد زكي يصدر من هذه المجلة الرفيعة التي هي أعظم مجلة في تاريخ العرب (على الإطلاق) ٢٥٠ عددا، كل عددٌ منها لا يقل في قيمته عن موسوعة حياة خالدة. ويعيش أحمد زكي عاما بعد أن انتهى من عقده الثامن ليتوج حياة قل أن تتكرر.. وقل أن تتماثل ثمارها.

الببليوجرافيا الكاملة لأعماله الفكرية

كان من نعم الله علينا أن وفقنا إلى إعداد ببليوجرافيا كاملة مفصلة لإنتاج الدكتور أحمد زكي على مدى حياته كلها ولأحاديثه الإذاعية ، وقد نشرنا هذه الببليوجرافيا كاملة في الإصدار الثاني من كتابنا عن الدكتور أحمد زكي (٢٠٠٣) و سوف نستعرض من خلالها جهوده الفكرية الفذة و غير المسبوقة.

إسهامه في التأليف العلمي

بدأ أحمد زكي تأليفه بالاشتراك مع زميله الدكتور أحمد عبد السلام الكردي في تأليف أول مرجع عربي حديث في الكيمياء (١٩١٥) بعنوان «مبادئ الكيمياء» في جزأين، الذي طُبع كما ذكرنا طبعات عديدة فاقت العشرين.

أعماله المترجمة

أما الأعمال المترجمة للدكتور أحمد زكي فتتنوع ما بين أدبية وعلمية، وكان نشرها سابقاً لنشر أعماله المؤلفة، وقد ترجم عملين أدبيين شهيرين:

- الأول: غادة الكاميليا وقد نشرت ترجمته لأول مرة بعنوان «ذات الكاميليا» عن المكتبة التجارية (١٩٢٠)، ثم نشرها باسم «غادة الكاميليا» (١٩٢٩، ١٩٣٨)، وهي ترجمة لقصة ألكسندر دوماس الصغير La Dame Aux Camelias .
- أما الثاني فهو جان دارك، وقد نشرته مطبعة الرسالة (١٩٣٨).

خمسة كتب علمية مترجمة

وقد قدم الدكتور أحمد زكي للمكتبة العربية خمسة كتب علمية مترجمة علي درجة كبيرة من الأهمية هي:

- "قصة الميكروب: كيف كشف رجاله"، من تأليف بول دي كريف (١٩٣٨)، وكان قد نشره مسلسلاً،
- «في أعماق المحيطات» من تأليف كلارك،
- «بواتق وأنابيب» (١٩٦٠) عن مكتبة النهضة المصرية
- «وحيوانات نعرفها» (١٩٦١)
- و«مواقف حاسمة في تاريخ العلم» من تأليف كونانت (١٩٦٣).

مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث: ماضيه وحاضره ومستقبله

وبالإضافة إلي الإنتاج العلمي والأدبي نشر الدكتور أحمد زكي تقريراً ضافياً عن «مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث: ماضيه وحاضره ومستقبله»، من خلال مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٣.

كتبه الجامعة لمقالاته

أما أول كتب الدكتور أحمد زكي الجامعة لمقالاته فقد نشره أحمد زكي عام ١٩٤٨ بعنوان «سلطة علمية»، وقد جمع في هذا الكتاب مجموعة من أحاديثه الإذاعية بلغت ٢٠ حديثاً، وقد صدر هذا الكتاب عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وفي العام نفسه (١٩٤٨) صدر له كتابه الثاني في هذا المجال وهو كتاب «مع الله في السماء» وقد ضم خمسة عشر فصلاً في الثقافة العلمية وركز فيه علي موضوعات تتعلق بعلوم الكون والفضاء والفلك. وفي ١٩٥٠ نشر كتابه الثالث «ساعات السحر» عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، وقد ضمنه ثمانية وعشرين فصلاً من المقالات الاجتماعية التي نشرها في مجلتي الهلال والاثنين. وفي ١٩٥١ نشر من خلال مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر مجموعة قصصية بعنوان «بين المسموع والمقروء»، وقد أثر أن يجعل عنوانها علي هذا النحو غير القاطع بتملكه لحق إبداع الأعمال التي يقدمها، كما أن هذا العنوان كان (فيما يبدو لنا الآن) مقصوداً للإيحاء بأنه راوٍ للقصص وليس صانعاً لها. وقد ضم هذا الكتاب ثلاثين قصة قصيرة. وفي مايو ١٩٥٤ نشر كتاباً خامساً في سلسلة كتب للجميع واختار له عنوان «مع الناس» وضمنه مجموعة من المقالات والفصول التي عبرت عن فكره الاجتماعي والإصلاحي وإن كانت قد ركزت أيضاً علي فهمه للمجتمعات البشرية والمفاهيم النفسية والاجتماعية كالبطولة والزعامة والأعباء والمجاملات والوجوه والأسماء والصحة وحسن السمعة والهموم وآداب الطريق والزواج.. إلخ.

وفي سياق كتب الفصول والمقالات نشرت دار الشروق (١٩٧٧) مجموعة من مقالاته العلمية في طبعة فاخرة بعنوان «في سبيل موسوعة علمية» و نشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب كتابه «مع الله في الأرض» (١٩٧٩)، وقد تضمن اثنين وأربعين مقالاً من مقالاته في مجلة العربي. و نشر الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال كتاباً له في سلسلة كتاب الهلال (مارس ٢٠٠١) بعنوان «حديث الزمان» وقد جمع فيه خمسة وأربعين مقالاً مختاراً من مقالات أحمد زكي علي مدي الفترة من ١٩٤٨ وحتى ١٩٥٧.

مقالاته ودراساته ومحاضراته التي لم تنشر في كتب

أما مقالاته ودراساته ومحاضراته التي لم تنشر بعد في كتب فتمثل تراثاً ضخماً لا غني للمكتبة العربية عن أن ينشره مَنْ هم قادرون علي أداء هذه الوظيفة علي نحو دقيق، وفي البليوجرافيا التي نشرناها عن أعماله إشارة إلى ما لم ينشر من أعماله في كتب ، فله دراسات قيمة في الكتاب السنوي للمجمع المصري للثقافة العلمية، ومقالات علمية متميزة في مجلة الرسالة التي داوم علي الكتابة فيها منذ ١٩٣٣ بصفة شبه أسبوعية، وفي مجلة الهلال التي بدأت علاقته بها منذ عام ١٩٤١، ثم ١٩٤٤، ثم منذ بداية ١٩٤٧ بانتظام تام حتي تركها إلي العربي في ١٩٥٨، وقد غطت مقالاته في مجلة الاثنين فترة موازية لمقالاته في الهلال، وكانت المجلتان تصدران عن دار الهلال. كذلك كانت له مقالاته المهمة في مجلات المصور، ومسامرات الجيب، والجيل، وحواء، وصحيفتي أخبار اليوم والشعب

مقالاته في مجلة الثقافة

كان من نعم الله علينا أن وفقنا إلى إتمام عملنا المشهور عن مجلة الثقافة ، وقد كان مما دفعنا إليه وشجعنا عليه ما بذلناه من جهد في تتبع إنتاج الدكتور أحمد زكي الذي بدأت علاقته بمجلة الثقافة منذ عددها الأول، ، وشهدت مقالا أسبوعيا له بعنوان «علي هامش الأسبوع»، ثم سلسلة أخرى من «بين المسموع والمقروء»، ثم سلسلة ثالثة بعنوان «مطالعات أشتات» وهي أطول هذه السلاسل جميعا عمراً.

مقالاته في مجلة العربي

نشرت مقالات الدكتور أحمد زكي في مجلة العربي في أكثر من صورة وفي أكثر من سلسلة: المقال الافتتاحي بعنوان «حديث الشهر» وهو سياسي في الغالب، اجتماعي في بعض الأحيان، أما المقالات العلمية فقد تنوعت ما بين باب «علوم» الذي ظل ثابتا في الأعداد الأولى من المجلة، ثم مقالات في الذرة والفضاء بدأت متفرقة ثم خصص لها ركنا بعنوان «ركن الفضاء والذرة»، ثم مجموعة مقالاته بعنوان «في سبيل موسوعة علمية»، ومجموعة مقالات أخرى جعل عنوانها «وحدة

الله تتراعي في وحدة خلقه»، وقد كونت هذه المقالات الجزء الأكبر من كتابه «مع الله في الأرض». وبالإضافة إلي هذا كله نشر في مجلة العربي مقالات أخرى في الترجمة وفي علم النفس، والتاريخ، والتراجم، والثقافة العامة، كما تولي تحرير صفحة في اللغة، وركن الأسرة والمرأة، وقد حافظ في كل هذه المقالات والأبواب علي مستواه المتميز. وقد شارك بنفسه في الاستطلاعات الصحفية الشهيرة التي كانت مجلة العربي تقدمها لقراءها، وهو الذي تولي كتابة الاستطلاعات عن مراكش والرياض والصحراء الجزائرية، كما تولي كتابة مجموعة من الاستطلاعات من الكويت.

الأحاديث الإذاعية

تبلغ الأحاديث الإذاعية التي حصرتها الببليوجرافيا التي أعدناها مع ذكر تواريخها ستين حديثاً إذاعياً.

كتابنا عنه

كان لنا الشرف أن أصدرنا عنه إصدارين مختلفين من كتابنا عنه يعتبر أولهما جزءاً من ثانيهما:

- الدكتور أحمد زكي حياته وفكره وأدبه، سلسلة اعلام العرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ وكان هذا هو الكتاب الأول في هذه السلسلة بعد إعادة إصدارها .
- سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكي، ، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣ .

هذا الفصل

نشر هذا الفصل ٢٠٠٤ في مجلة العربي الكويتية في مناسبة مرور ١١٠ عاماً على مولد الدكتور أحمد زكي .

الفصل الخامس

الدكتور حسين فوزي المفكر المصري الكبير

في الحادي عشر من الشهر الماضي ١١ أغسطس ١٩٨١ أضاء المفكر المصري الكبير الدكتور حسين فوزي الشمعة الأولى بعد الثمانين من عمره المضي.

ولا يزال مفكرنا الكبير يعطي في كل مكان ومجال. وقد كان آخر انشطته هو تمثيله لمصر في المؤتمر الدولي للمسرح مع صديقه الكبير توفيق الحكيم، هذا بالإضافة إلى أنه لا يزال أكثر الكتاب الكبار مداومة على اقناع القارئ بنظراته وتأملاته العميقة.

مفكر واسع الأفق

وأصدق ما يقال في وصف الدكتور حسين فوزي هو أنه المفكر واسع الأفق، وفي هذا الصدد فانه يحتل مكانة قلما أتاحت لكبار المفكرين في الحضارات العظمى، فقد درس الطب في قصر العيني، ومارسه، وتخصص في طب وجراحة العيون، ثم أغرته البعثة العلمية بأن يتخصص في علوم البحار فيدرس في فرنسا ويعيش فيها.

و هو الأستاذ الذي طور لوطنه معهد علوم البحار ومدرستها ومتاحفها المصرية الأولى، وأسس كلية العلوم المصرية الثانية ورعاها عميدا عشر سنوات، وتولى مقاليد الجامعة الثانية في الثغر في أحلك الاوقات، ثم شارك بالجهد الأوفر في تأسيس كل كيانات وزارات الثقافة والارشاد القومي والاعلام والمؤسسات الثقافية، ومعاهد الفنون واكاديميتها وفرقها.

وهو إلى ذلك كله فيلسوف عميق، وأديب من الرواد المجددين وكاتب من الفحول وصحفي من الدرجة الأولى. وعلى صعيد المواهب الشخصية فانه من أمهر عازفي الكمان في الشرق، هذا مع كثرة هواياته، ودقة مهاراته.

هذه الرحلة الطويلة العريضة تحتاج إلى التناول بشيء من التفصيل، لتكون نبراسا للشباب في جميع مراحلهم حين تنتابهم الحيرة في تحديد مستقبلهم، وحين يأتيهم القدر بالآفاق الواسعة فيأبون إلا ان يبقوا على ما عرفوه وظنوا أنهم اجادوه.

نشأته

ولد الدكتور حسين فوزي سنة ١٩٠٠، في حي الحسين، وسمى باسم الامام الحسين، وكان والده مهندسا وتلقى تعليمه في مدارس القاهرة، وحصل على البكالوريا من المدرسة السعيدية، وجاء ترتيبه الرابع على القطر، وكان الأول سنتها هو صديقه الكبير الدكتور محمد كامل حسين، والتحقا بكلية الطب، وبرز فيها، وتخرج بعدما شارك في ثورة ١٩١٩، وهو طالب، وقضى عامين طبييا، واختار التخصص في الرمد، وعمل في مستشفى الرمد بالجيزة بعض الوقت.

بعثته العلمية

ثم تقدم الدكتور حسين فوزي لبعثة لدراسة علوم الاحياء المائية "الهيديروبيولوجيا" في فرنسا، ووقع عليه الاختيار، وسافر إلى تولوز، وأتيحت له زيارات عدة لمتاحف العالم في علوم البحار، وتاريخ الحضارة، ودرس بيئات المياه العذبة والمياه المالحة، واعد بحوثا ودراسات أصيلة و موسعة في هذا التخصص.

معهد علوم البحار بالإسكندرية

وعاد الدكتور حسين فوزي من بعثته بعدة دبلومات عالية في النبات والحيوان وعلوم البحار ومصايد الاسماك ليتولى أمر معهد علوم البحار بالإسكندرية ، كأول مصري ، وظل يتولى هذه المهمة لأكثر من اثني عشر عاما نهض فيها بالمسئولية على اتم وجه، وأنشأ مدرسة علمية رفيعة المستوى في علوم البحار في ثغرنا الكبير.

تأسيس كلية العلوم في جامعة الإسكندرية

و تنشأ جامعة الاسكندرية ويختار الدكتور حسين فوزي عميدا لكلية العلوم الجديدة، فيكون ثاني عميد للعلوم بعد الدكتور مشرفة باشا في القاهرة، واستاذا لعلم الحيوان. ويتولى الدكتور فوزي عمادة علوم الاسكندرية قرابة عشر سنوات ،ثم يتولى أمر الجامعة عاما كاملا من أقسى الأعوام في تاريخ الجامعة يثبت فيه قدرة العلماء على العطاء في كل الميادين.

وكيل وزارة الارشاد القومي

ويعود الدكتور حسين فوزي إلى القاهرة ليشغل منصب الوكيل الدائم لوزارة الارشاد القومي عند نشأتها، التي كانت نواة وزارتي الثقافة و الإعلام فيما بعد ، ولم تكن هناك وزارة لهذه الأغراض محددة المعالم، ولكن الدكتور فوزي يعمل بجهد الدؤوب على وضع أسسها وبرامجها وتنظيم ادارتها.

ريادته الثقافية

وايادي الدكتور حسين فوزى على الثقافة المصرية الحديثة لا ينكرها أحد، وستبقى آثار الدكتور فوزي في هذا المجال ما بقيت الثقافة المصرية، فقد اتاح فكر الدكتور فوزى الذى اعان عددا من أشهر وانشط وزراء الثقافة المصريين على استحداث القوالب الجديدة للثقافة الاعلامية والفنية من خلال مصلحتي الآداب والفنون ، ومن خلال انشاء الاذاعات المتخصصة، كالبرنامج الثاني والموسيقى، ووضع أسس اوركسترا القاهرة السيمفوني ، ومسرح العرائس وفرق الفنون الشعبية.

أكاديمية الفنون

بقى الدكتور حسين فوزي في منصبه هذا طلب إحالته إلى التقاعد ، وواصل جهوده في بناء أسس الثقافة والفنون في مصر على أساس علمي يتيح البقاء والازدهار، وتنشأ بفضلها اكاديمية الفنون، ويكون اول من يتولى أمر الاشراف عليها، وتنشأ معاهد الأكاديمية و دراساتها العليا ، وبذل الدكتور فوزي الجهد في

تدعيم اتصالها بالعالم الخارجي من خلال البعثات العلمية، لتعرفها مصر لأول مرة على نطاق واسع، والتبادل الثقافي، واستقطاب الاساتذة الدوليين .

وتكرم الدولة جهود الدكتور حسين فوزي فتمنحه جائزتها التقديرية للفنون والدكتوراه الفخرية في الفنون ١٩٧٩ .

قصته مع جائزتي الدولة التقديريتين

ويوم منح الدكتور فوزي جائزة الدولة التقديرية في الفنون كان اسمه مرشحا أيضا لنيلها في الآداب، ولكنه اعتذر عن ترشيحه لجائزة الآداب بعدما أعلن عن فوزه بجائزة الفنون، وفاز يومها بجائزة الآداب شاعر الشباب أحمد رامي. ترى هل كان من الممكن أن يحدث العكس لو بدأ أعضاء المجلس الاعلى للفنون والآداب يومها بالتصويت على جائزة الآداب قبل جائزة الفنون! احتمال كبير!

قيمه بين الأدباء

يحتل عالما الجليل مكانته كواحد من اعظم الأدباء العرب في العصر الحديث بما يتميز به : عمق فكرة وسلاسة بيان، وسلامة أسلوب، وقوة منطق.. والأدباء جميعا من هواة ومتفرغين يعترفون له بهذا الفضل، على جميع المستويات حتى على المستوى النقابي المتمثل في اتحاد الكتاب بفوز الدكتور فوزي بأغلبية الاصوات عددا بعد صديقه الكبير توفيق الحكيم عميد الكتاب ورئيس الاتحاد

و الدكتور حسين فوزي بلا شك هو الرائد الأول والاستاذ الكبير لأدب الرحلات في مصر، ورحلاته ليست في المكان فحسب، ولكنها في الزمان كذلك، ورحلاته في الزمان ليست تأريخا بقدر ما هي طراز فريد من أدب الارتحال الذي يعنى بوضع الصورة الكاملة، وابرار الملامح الخاصة على النحو الكاركتيري.

وسلسلة كتب الدكتور فوزي السندباديات تمثل تراثا فكريا ضخما يحمل إلى جانبه العلمي والوصفي الدقيق لمحات ذكية دقيقة من النقد والنظرة الفاحصة والرؤية المتعمقة.

القصة القصيرة

وقبل هذا كله فان الدكتور فوزي واحد من رواد القصة القصيرة في مصر، وإن حالت دراسته في باريس بينه وبين متابعة إنتاجه في هذا المجال، بالقدر المطلوب من الرواد الاوائل، ولكنه بلا شك واحد من ابرز الرواد الذين وضعوا البذور أو الأسس الحقيقية للقصة المصرية في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

جهده في المجمع العلمي المصري

بقيت نقطتان لا أظن الحديث عن الدكتور فوزي ينتهي دون الإشارة إليها ولو في سطرين، أولهما أن الرجل لا يزال الى اليوم يحتل - وبصفة مستمرة - منصب نائب رئيس المجمع العلمي المصري، يتبدل الرؤساء على المجمع، ويبقى هو نائبا بعدما رأس هذا المجمع منذ حوالي ثلاثة عشر عاما.

هذا الفصل

نشر هذا الفصل في مجلة الشباب وعلوم المستقبل في ١٩٨١ بمناسبة بلوغ الدكتور حسين فوزي الحادية والثمانين .

الفصل السادس

مصطفى أمين و الظل الوارف للصحافة

أكتب عن مصطفى أمين بعد عشرين عاما من غيابه ، و أبدأ بذكر معادلتين تقولان إن مصطفى أمين هو الصحافة وإن الصحافة هي مصطفى أمين ، ذلك أنه ليس في العصر الحديث الذي هو عصر الصحافة من يستحق أن يعبر عنه بهاتين المعادلتين أكثر من مصطفى أمين الذي عاش الصحافة ومارسها وطورها وعلمها ووظفها ورقّعها وتوجّها وحارب بها وكرمها على نحو لم يتح لغيره بذات القدر في معاصريه العرب والأجانب على حد سواء ، و بلغة علوم البيولوجيا فقد كانت كُرياته الدموية الحمراء صحافة وكانت صفيحاته الدموية صحافة ، وكانت خلاياه الدموية البيضاء صحافة ، لم يعيش لغير الصحافة ، ولم يعيش لحظة من حياته بلا صحافة .

نشأة متميزة

هيا الله لمصطفى أمين نشأة متميزة في كنف الزعيم سعد زغلول في بيت الأمة ففتحت له النافذة تلو النافذة على الحقائق التي لا يعلمها إلا قليلون ، وهيات له نفسا تحب التفوق وتنزع إلى التأثير ، وهكذا اكتملت له الذخيرتان الكفيلتان بالمكانة التي وصل إليها ولم ينافسها فيها أحد .

أستاذية الصحافة في جامعة القاهرة

قرن مصطفى أمين عمله اليومي الراتب بأستاذية الصحافة في جامعة القاهرة، وكان في هذه الأستاذية يؤدي حقوق الوطن على المهنة من نقل الخبرة وضرب القدوة كما كان يؤدي أيضا حقوق المهنة على الوطن في استقطاب الزهور وانتقائها واستنباتها من بين هؤلاء الطلاب والطالبات الذين يحضرون محاضراته ويستمعون إلى خبراته و يناقضونه أو يناقشونه على نحو لا نستطيع أن نجد له الآن نظيرا في

حياتنا العامة ، لكنه كان قادرا على أداء هذا الدور بهذه السلاسة بفضل الموهبة التي رُزقها.

دراسته في أمريكا

كانت الفترة التي قضاها مصطفى أمين في دراسته في أمريكا (وقد كان والده وزير مصر المفوض في واشنطن حين كان رؤساء البعثات الدبلوماسية المصريون يسمون بهذا الاسم) ذات أثر بالغ في أدائه للوظائف و الرئاسة التي خلقها لنفسه فقد أصبح مغرما بالطموح البشري مشجعا له مدركا لحدود ما يمكن أن يضيف هذا الطموح من إنجاز ومجد وتفوق لصاحب العمل ، وكان هو بطبعه محبا واستيعابيا ولم يكن يطبق فكر الاستبعاد بالقدر الذي لم يكن يطبق فكر الاستبعاد ، وهكذا كان يريد من تلامذته والقادمين للتلمذة على يديه أن يكونوا أحرارا منفتحين منتجين ، وقد ظل طيلة حياته يسأل تلاميذه حين يلقاهم سؤاله التقليدي الوحيد الذي ورثه كثيرون منا عنه وهو : إيه الأخبار؟

الحفاظ على كرامة المهنة

كان مصطفى أمين طيلة حياته الصحفية أبرز زملائه في الحفاظ على كرامة المهنة ، تتعدد القصص والروايات التي تصور نجاحه في فرض هذا الخلق و العمل من أجله فيؤكد بعضها بعضا لكننا نستطيع أن نلمح فيها كلها إيمانه الحقيقي بأن كرامته هو نفسه تنبع من كرامة أصغر صحفي ، وأن المهنة تفرض الاحترام مهما كان شأن من يؤديها ، و لهذا السبب فإنه لم يكن يعنى بأن يكون الصحفي قد حصل على مؤهله أم لم يحصل وإن كان يتمنى له بالطبع أن يسارع بالحصول على مؤهل ، كما أنه لم يكن يشغل باله بالوضع الوظيفي هل هو معين أم متقاعد أم متمرن أم متعاون مع أكثر من صحيفة.. ولا بالوضع النقابي هل هو عضو في النقابة ، أم تحت التمريم ، أم أنه لا ينتمي للنقابة حتي ذلك اليوم .. الخ ، كانت الصحافة عنده "مهمة" قبل أن تكون "مهنة" حتى لو كنا سنتحدث حديثا براجماتنا مطلقا بعيدا عما نؤمن به من قيم "الرسالة" و "الأمانة" و عن "المكانة".

الفن التشكيلي وفن الكاريكاتير

كان مصطفى أمين واعيا لمكانة الفنان التشكيلي وفنان الكاريكاتير وفنان الإخراج الصحفي بين عناصر الصحافة ، وعلى يديه أصبح هؤلاء الفنانون صحفيين "كاملي الصفة الصحفية" وليسوا فنانيين متعاونين مع الصحافة، وما من فنان تشكيلي ذي قيمة أو أثر إلا وخاض تجربة العمل مع مصطفى أمين بصورة أو أخرى.

وقل مثل هذا عن موقفه مع الشعراء وكتاب الأغاني على الرغم مما قد يبدو من بعد مجالهم عن ميدان العمل الصحفي لكن مصطفى أمين كان يرى أن مكانهم الطبيعي أن يكونوا موجودين في المؤسسة الصحفية سواء كتبوا الأغنية أو الخاطرة أو الصحافة أو المقال ، أو تفرغوا للشعر أو لكتابة لأغاني من دون أن يقدموا شيئا مباشرا للصحيفة .

آثار شخصيته في تلاميذه

ترك مصطفى أمين كثيرا من آثار شخصيته في تلاميذه لكنه لم يكن حفيا بالقدر الموازي بأن يترك هذا الأثر في عمل مهني من قبيل مراجع التجارب المهنية ، وهو معذور في هذا وإن كان التاريخ والعلم يلومانه على أنه لم يقدم هذا الذي كان واجبا عليه أن يقدمه.. لكن الدراسات الحديثة كفيلا بأن تقدمه من خلال دراسة أعماله الكاملة يوما بيوم في الصحافة التي عشقها على مدى سبعين عاما.

الرائد الأعظم لصحافة الخبر

نعرف أنه الرائد الأول والأعظم لصحافة الخبر وأنه هو الذي نقل الصحافة العربية إلى أفق صناعة الخبر وصحافة الخبر وما في ذلك من شك ، لكنه مع هذا هو أيضا الأستاذ الرائد لعصر المعلومات لأن عنايته الفائقة بالخبر قادتته إلى النتيجة الطبيعية وهي العناية بالمعلومات ولما كانت المعلومات متعددة ومتشعبة فقد تنبه منذ وهلة مبكرة إلى الحاجة إليها وإلى ضبطها قبل أن تقدم للقارئ ، وهكذا امتد مصطفى أمين بالمكتبة إلى أفق المعلومات سابقا في هذا الأقسام الأكاديمية الجامعية في جميع

أنحاء العالم ، وهو الذي وضع أفضل الأسس العملية للأرشيف الصحفي وملفات المعلومات وملفات الصور وملفات النيجاتيف المطلوب لكل حدث .

الأستاذ الأول لعلم المعلومات في مصر

كنت أقول لأساتذة الحاسبات والمعلومات ردا على سؤالهم التاريخي : إن مصطفى أمين هو الأستاذ الأول لعلم المعلومات في مصر ، من حيث هو علم لا هواية ، ومن حيث هو علم له تكنولوجيا ، كما أنه هو الذي علم أصحاب القلم وأصحاب الصحف أن يكون للمعلومات مكان في اهتماماتهم وفي ترتيب أولوياتهم وفي عرضهم للحقائق مهما كان هذا العرض مستهدفا للسلاسة والتشويق . أذكر أن المسؤولين عن أقسام المعلومات ومكتبات الصحف كانوا كلما رأوني مشغولا بتحقيق جزئية من مصادرها المختلفة يقولون لي : آه لو رأك مصطفى بك في أيام مجده القديم لجعل مشاهدتك على هذه الحال (الفرجة عليك) إحدى مؤهلات كل صحفي .

وكانت كل هذه الفعاليات تتطلب إتقاننا لم يكن مصطفى أمين يبخل به أبدا كما أنها كانت تتطلب إنفاقا لم يكن مصطفى أمين يبخل به أبدا، وكان إذا زار صحيفة في الخارج نظر إلى قدراتها في تطوير مثل هذه الأقسام الحديثة واستقى منها أفضل ما هو متاح .

ويتصل بهذا المجال ما تأخرت في الحديث عن عمد وهو قدرته على تنظيم كل المعلومات الخاصة بالمجتمع المصري والعربي وبما يحتاجه أي صاحب قرار في كل وقت ، وقد كان الرئيس عبد الناصر دائما ما يعول على ملف المعلومات القادم من مصطفى أمين مقدرًا أفضليته على ملفات المعلومات القادمة من أجهزة المخابرات والأمن ، وكان يجاهر بهذا، وكان محقا في هذا أيضا .

ويعتقد تلاميذ مصطفى أمين ومعاصروهم أن نجاح مصطفى أمين في هذا المجال يعود إلى ركيزتين أولاهما هي شبكة المعلومات التي استطاع تكوينها على نحو فذ و مذهل ، وثانيتهما ترتبط بشخصية مصطفى أمين نفسه كمحب للعلم والاستطلاع معا وقد وصل حبه للعلم و الاستطلاع إلى ذروة الشبق المطلوب المتفوق ، فكم من

أستاذ كبير كان محبا للعلم متيما به لكنه يفتقد حب الاستطلاع الذي قد يسمونه الفضول ، وكم من فضولي كان يجيد التقاط الحوادث والأخبار لكنه لا يملك ما يمكن لنا أن نسميه دولا ب العلم الذي يستطيع حفظ هذه المعلومات فيه على النحو الكاشف والمضيء الذي كان مصطفى أمين يملكه .

حبه للمعلومات كان هو سر نكبته

على أن حب مصطفى أمين للمعلومات كان هو سر نكبته من حيث أجم التنافس بينه وبين أجهزة المخابرات من ناحية ، ومن حيث سهل وصم كل نشاط له بالوصمة الاستخباراتية أو المخابراتية ، وهكذا كانت قضية مصطفى أمين تتحرك على أرضية من عمله في مجال الخبر والمعلومات وعلى خلفية من تعاونه الفائق مع رئيس الدولة في مجال استطلاع النوايا والتوجهات ، هكذا يصبح حديث المستقبل عن التاريخ في قضية مصطفى أمين شائكا للدولة بأكثر مما كان شائكا لأي إنسان.

كانت هزيمة ١٩٦٧ مستحيلة لو كان حرا طليقا

وإذا كان الظلم في قضية مصطفى أمين قد حاق بمصطفى أمين كشخص فإن هذا الظلم قد حاق بالدولة كوطن وكأرض وككيان لم يفق إلا على هزيمة ١٩٦٧ التي كان من المستحيل أن تحدث لو كان مصطفى أمين حرا طليقا فقد كانت قدرته على إتاحة تدفق المعلومات للمستويات القيادية من خلال الصحافة المطبوعة كقيلة بتوفير المستويات المختلفة من السلطة قبل أن تندفع إلى ما اندفعت إليه في مايو ١٩٦٧ من إغلاق المضايق والتمهيد لإعلان الحرب.

لو كان مصطفى أمين يومئذ حرا طليقا لاستطاع بمقدرته الفذة أن يدل الرئيس وغير الرئيس على ما ينتظر مصر أو ما نصب لها من شباك العدو وكمانته ، لكن مصطفى أمين أودع السجن وتركت الصحافة يتيمة من دونه ، بل تركت ضائعة من أن تحصل على أي خبر يشتم منه أنه يقلل من حكمة الزعيم أو من معرفة الزعيم، وهكذا فإنه في غياب مصطفى أمين كان لا بد من حدوث الكارثة التي سبقت كارثة ١٩٦٧ ومهدت لها وهي كارثة التجهيل المتعمد لحقيقة الموقف ولعواقب القرارات.

وإذا كان بعضنا يوافق على القول بأن ١٩٦٧ كانت نتيجة عوامل عديدة متقطعة فإن من هذه العوامل أنك أودعت السجن مصدرك الأول للمعلومات عن أمريكا واستقيبت بالقرب منك المورد الأول للمعلومات إلى أمريكا. وهكذا أصبح الميزان المعلوماتي يميل تماما لزيادة المعلومات المصدرة عنك إلى أمريكا في مقابل ندرة معلوماتك المستوردة عنها ، وكانت هذه كارثة الكوارث بكل المقاييس.

إخلاصه للحقيقة التي يريد إبرازها

أنتقل إلى الأسلوب البياني لمصطفى أمين أو أسلوبه في الإبانة وفي الستر ، وإذا قيل إن اللغة والكتابة قد اخترعنا لتمكنا من تجاهل ما نريد تجاهله في ضوء ذكرنا لما نريد ذكره فإن مصطفى أمين كان مخلصا للحقيقة التي يريد إبرازها إخلاصا غريبا ، فقد استطاع بألفاظ محايدة جدا أن يعبر عن كثير من المعاني الإنسانية والسياسية التي لم يكن من المستحب لأحد أن يتناولها من قريب ولا من بعيد لكنه استطاع أن يجسدها و أن يمثلها وأن يسرد وقائعها على نحو مُعجز لا تستطيع أن تتهمه في أي لفظ ومع هذا فإنه لم يترك جزئية من جزئيات المعنى إلا وقد مسها مسا مباشرا ، وعلى سبيل المثال وبدون أن أكون من الذين يحتنون على البحث في المدفونات أو الحفائر أو يبحثون عن "المستمسكات" فإن مصطفى أمين أجاد وصف نفسية السحاقيات على نحو لم يُتخ لغيره أن يصل إليه حتى من الذين كتبوا عنه في اللغة الإنجليزية أو الطبية بصراحة شديدة.

نصوصه السردية ذات خصائص منفردة

كانت نصوص مصطفى أمين المتخذة لشكل فنون السرد ذات خصائص انفراد هو بها على هذا النحو الذي عرف عن أدبه ، وعلى سبيل المثال فإن مصطفى أمين كان يتمتع بخاصية مهمة في نشر المعلومات وتوثيقها وهي أنه كان يطعم بها بعض كتاباته السياسية وأعماله القصصية ، وعلى سبيل المثال فإن قصة "لا" حافلة بوقائع التاريخ التي تفرد مصطفى أمين بنشر حقائق مخفية عنها لم تنشر في غيرها من القصص والروايات، كذلك فإن قصة "كاف" تمثل معينا لا ينضب لا للمعلومات التاريخية والاجتماعية فحسب ولكن لوصف كثير من الأمزجة و البيئات الخاصة

التي عاشها مصطفى أمين واستوعبها ونقدتها واستعرضها واستذكرها وأجاد وصفها وتشریحها.

عبر بالسياسة عن العاطفة برمزیه واضحة

وإذا كان إحسان عبد القدوس قد نجح أيما نجاح في عرض رؤية المرأة لنفسها ولمشكلاتها فإن مصطفى أمين لم يكن يضع المشكلة العاطفية في المحل الأول من سرده وإنما كان يوردها في موضع (الممثل المساعد) أو البطل (الثاني) فيما بين الأبطال التي تقود حركة نفسها في اللاوعي ، وإذا كان إحسان قد حرك مرآته في الاتجاه الذي يجعل العاطفة تعبر عن السياسة برمزیه ناقصة فإن مصطفى أمين عبر بالسياسة عن العاطفة برمزیه واضحة ربما تصل حد المباشرة ، ولهذا وطبقا لمنطق الفن فإن إحسان حظي بمكانة فنية وأدبية تفوق مكانة مصطفى أمين بينما كان إسهام مصطفى أمين أعمق وأوسع لأنه كان حريصا على المباشرة ومضحيا بالفن عن قصد بل عن عمد متعمد ، ولم يكن هذا الأسلوب المباشر يعكس ضعفا فنيا ولا قلة خبرة ولا قلة طموح من مصطفى أمين بل بالعكس، فلو أن مصطفى أمين باسمه الكبير لجأ إلى تقديم نفسه في ثوب الفنان لفقد خطابه السياسي جزءا كبيرا من مصداقيته وهي مصداقية كانت مطلوبة في كل صباح على مدى خمسة أو ستة عقود بلا مبالغة وإذا بحثت في الصحفيين المعاصرين في العالم كله عن صحفي استمر تأثيره طيلة هذه الفترة وامتد على هذا النطاق الذي امتد إليه مصطفى أمين فلن تجد من يتفوق عليه لا أمريكيا ولا غريبا ولا شرقيا.

كان يثق بأن دوره محفوظ

لم يكن مصطفى أمين يشغل باله بدوره في كتابة القصة التي ربما كان هو بطلها ، وإنما كان ما يهيمه هو ما يقصده من معنى حين يروي القصة وهو واثق من أن دوره معروف وحقه محفوظ ، ولم يكن يحتاط لأي صورة تنطبع عنه من خلال ما يسجله من وقائع ، ومن الإنصاف أن أقول إنه في هذا الخلق كان كاتباً رائعا بحق لكنه كان بهذا الترفع التلقائي يتجاوز حق الإنسان في معرفة الانفعالات التي مر بها الراوي حين يشارك فيما شارك فيه من أحداث يرويها ، ومع أن أسلوب مصطفى

أمين أنفع لعظمة صاحبه فإني بما جبلت عليه من طبع مهنتي لا أستطيع أن أجاريه فيما كان يفعله لأنني أعتقد أنني أكون خائنا للجزء الشعوري والانفعالي الذي لا بد للمستمع أو القارئ أن يحيط به وإلا فقدت القصة قيمتها أو مبررها.

لكن مصطفى أمين كصاحب مجد كان مشغولا عن هذا تماما بمجده لا أقول المتحقق ولكن أقول الذي كان لا يزال يتجدد.

وكان مصطفى أمين إذا كتب عن شخصية من الشخصيات التي عاشت السياسة وصل في سرعة البرق إلى منطقة التفوق أو التميز في أدائها وحل هذا التفوق منحازا للقيمة لا للشخص .

علاقته بالسيدة أم كلثوم هي العلاقة الأقوى في حياته

أما العلاقة الأقوى في حياة مصطفى أمين فهي علاقته بالسيدة الفنانة أم كلثوم وقد كان مصطفى بالنسبة لأم كلثوم أكثر من زوج ، وأكثر من أخ ، وأكثر من مستشار ، كما كانت أم كلثوم حتى بأموالها سندا لمؤسسة لأخبار اليوم ومساهمة من المساهمات الأصليين في الشركة المساهمة التي أسست أخبار اليوم.

لسنا في الشرفة التي تسمح لنا بوصف علاقة أم كلثوم بـمصطفى أمين على نحو دقيق، ولماذا اتخذت حياتهما الزوجية هذا الطابع الذي نستطيع أن نصفه بأنه البعيد عن الضوء والقريب من الصوت ، لكننا نستطيع أن نفهم أن طرفي العلاقة كانا يملكان من الذكاء المهني والاجتماعي ما يحد من التألق العاطفي بأي علاقة يكون كل منهما طرفا فيها ، فقد كانا بالغين وقادرين على التحكم في الصورة وفي التصرفات على نحو كبير ، وقد وجدا لأسباب كثيرة أن علاقة غير كاملة الصورة أفضل بكثير من العلاقة الكاملة دون أن ينفي هذا أن الزواج بينهما قد تم واستمر لسنوات طويلة.

ونحن نعرف أن أم كلثوم لم تبدأ الظهور في السينما إلا في قصة كتبها مصطفى أمين ، وأنها لم تظهر في المجتمع الرسمي إلا بترتيب دبره مصطفى أمين كما نعرف

أيضا أنها لم تكن مرتاحة البال حين عاشت الألم وهي تراه يعتقل و يتهم ويتعرض لبطش القوة التي لم تكن هي نفسها قادرة على فرملتها أو إيقافها عند حد.

موجز حياته الثرية

عاش مصطفى أمين منفقا من كل شيء إنفاق من لا يخشى الفقر

- لم يعرف البخل وإن عرف الاقتصاد
- لم يعرف الشح وإن عرف المحاسبة
- لم يعرف التقييد وإن عرف التسجيل
- لم يعرف الندم وإن عرف المراجعة
- لم يعرف النكوص وإن عرف المراجعة
- لم يعرف النكوث وإن عرف التريث

كنت أريد أن أقول إنه لم يعرف القيد لكنه للأسف الشديد عرف القيد وإن سعى حياته كلها لتحطيم القيود.

هذا الفصل

نشر هذا الفصل في مجلة العربي الكويتية في مناسبة مرور عشرين عاما على وفاة الأستاذ مصطفى أمين .

الفصل السابع

تجديد ذكرى إحسان عبد القدوس

أشهر روائي عربي في ضمير الجماهير

مع أن إحسان عبد القدوس ١٩١٩- ١٩٩٠ ولد في يناير ، وتوفي في يناير فاني لا أعتقد أن ذكراه يمكن أن تحل في يناير، وإنما موعدها الطبيعي هو عيد الربيع وموسم الربيع. وإذا كانت الرومانسية في الآداب الأجنبية قد استمدت اسمها من اسم الرواية فإن إحسان في ضمير الجماهير العربية هو أشهر روائي عربي (كما أنه أشهر رومانسي) علي الإطلاق، مع اعتراف هذه الجماهير بأستاذية نجيب محفوظ وغيره من الروائيين المعاصرين له، أو اللاحقين به، و لم ينل إنتاج أديب عربي ما ناله إنتاج إحسان عبد القدوس من إقبال وذبوع وانتشار، ولربما كان الأهم من هذا والأكثر وقعاً هو ما نالته شخصياته الروائية والقصصية من استحضان في مواقف الحياة المختلفة، ذلك أنه رزق التمكن التام في أقوى وسيلتين للذبوع في مصر وهما الصحافة والسينما، فكانت الجماهير الغفيرة تطالع أعماله التي تنشر مسلسلة في شوق بالغ، وكانت جماهير السينما الغفيرة أيضاً تتابع الأعمال المأخوذة عن فنه أيضا بشغف لا نهاية له.

الصحفي الألمع في شبابه

كان إحسان عبد القدوس بالإضافة إلي هذا الصحفي الألمع في شبابه، وهو الصحفي الذي مكنه الذكاء والحظ من أن يحظى في الوجدان بأعلى قيمة يصل إليها صحفي من دون أن يلتهمه رذاذ السياسة المشوه، أو القاتل في بعض الأحيان، حتي مع كل الإيذاء والتعذيب والتهميش الذي لحق به بسبب السياسة، ومع أنه في مكانته السياسية في عهد ٢٣ يوليو كان بعيدا بارادته بخطوة أو خطوتين عن الرياسة والسلطة، فإن مكانته البروتوكولية ظلت محفوظة ومتقدمة، ولم ينس الضمير

الوطني له أنه كان عاملا من عوامل قيام الثورة ونجاحها، علي الرغم مما لقيه علي يديها من جحود مبكر، وعلي الرغم من انحيازها شبه الفوري إلي طرز بارزة من المنافقين والأفاقيين الذين أرضوا نزعتها، وعملوا لها بما يضرها، وبما ضررها بالفعل.

كاتب سياسي من طراز موهوب

عاش إحسان عبد القدوس كاتبا سياسيا من طراز موهوب، وكان له أسلوبه الفذ في التحليل السياسي والاجتماعي. كان قادراً علي الفهم، وعلي تكوين الرأي. كان أذكي ما يكون في وصفه الدقيق، وكانت الأنسجة التي رسم منها شخصياته وأحداثه وصوره وآرائه عريضة ومتنوعة، حتي إن بدا أن موضوعاته قريبة من بعضها لكنه كان الفنان الذي عُرف وكأنه تخصص في الزهور وحدها، لكنه رسم الزهور في كل أحوالها، كما رسم كل شيء علي هيئة زهرة، كما أنه رسم كل ما يحيط بالزهور رسماً لا يقل جودة عن رسمه للزهور.

نشأته وأسرته

ولد إحسان عبد القدوس في كفر المأمونة قرب زفتي في اليوم الأول من الشهر الأول من أيام سنة الثورة المصرية (١٩١٩). ووالدته، كما هو معروف للكافة، هي الفنانة الممثلة والصحفية الرائدة فاطمة «روز» اليوسف،

أما والده فهو المهندس محمد عبد القدوس الذي تخرج في مدرسة الفنون والصنائع (١٩١١)، وبدأ العمل موظفا في الحكومة، وعمل مهندسا في الأقصر، ثم عمل ناظرا لمدرسة نجع حمادي الصناعية، ثم ترك الحكومة وتفرغ كلية للفن، وعمل في مجال التمثيل والتأليف المسرحي والسينمائي، وقد أدي عددا من الأدوار التمثيلية علي المسرح وفي السينما، كما كان كاتبا يكتب المسرحيات والشعر والزجل، كما كان يلقي مونولوجات يضع كلماتها وألحانها، وقد تقابل والده مع والدته في عام ١٩١٦، وسرعان ما تزوجا وأنجبا إحسان في أول يناير عام ١٩١٩، لكنهما كانا قد انفصلا لاختلاف نزعاتهما الفنية.

وعلي عكس ما هو شائع من أن تكون الحضانة في البداية للأم ثم تنتقل للأب فقد تربي إحسان عبد القدوس وهو طفل في بيت جده لوالده الشيخ أحمد رضوان ، ودخل الكتاب بالعباسية، وارتبط بعلمته، ثم عاش مراحل شبابه مع والدته.

جده أزهري من رجال القضاء الشرعي

كان جده لأبيه الشيخ أحمد رضوان من خريجي الأزهر، ومن رجال القضاء الشرعي، وكان مشتبكا بقدر كبير مع القضايا السياسية، وكان كثير من قادة الثورة من أيام مصطفى كامل إلي أيام سعد زغلول يعهدون إليه بالإشراف علي شئونهم إذا اضطروا إلي الهجرة خارج مصر، وفي بيت جده كانت السيدة التي ترعاه كأمه هي عمته السيدة نعمات رضوان، وإن لم يحرموا والدته "روز اليوسف" منه رغم تحفظهم عليها لأنها امرأة متحررة تعمل بالتمثيل علي المسرح.

تعليمه القاهري

تلقي إحسان عبد القدوس تعليمه الأولي في مدارس مدنية متنوعة، فدرس في مدرسة السلحدار الابتدائية (١٩٢٥ - ١٩٢٧) ، ثم مدرسة خليل أغا الابتدائية (١٩٢٧ - ١٩٣١)، فمدرسة فؤاد الأول الثانوية حيث حصل علي التوجيهية (١٩٣٨)، ومن الواضح أن المرحلة الثانوية قد استغرقت من عمره أكثر مما ينبغي، وهو ما يتوافق مع ما كان في مرحلة المراهقة من ميل طبيعي إلي كل ما هو لا دراسي، وغير مقرر، والتحق بكلية الحقوق جامعة القاهرة وحصل منها علي درجة الليسانس (١٩٤٢)، وعمل لمدة عام في مكتب محاماة قبل أن يتفرغ تماما للعمل الصحفي، وأخذ يكتب آراءه السياسية وأعماله القصصية في آن واحد في مجلة روز اليوسف.

زواجه المبكر

وقد تزوج إحسان عبد القدوس في العام التالي لتخرجه (٥ نوفمبر ١٩٤٣) من زوجته السيدة لواحظ المهيلمي، ويعترف إحسان بأن الفضل في زواجه المبكر يعود للتابعي الذي كان في هذه الفترة بمثابة مثله الأعلى وهو يقول:

"... تأثرت في فترة من فترات حياتي بكل حياة محمد التابعي، كنت أتصور أن النجاح هو أن أعيش كما يعيش التابعي، لكن التابعي نفسه هو الذي أنقذني من ضعفه، أسهم في حمايتي من إغراءات النجاح، ففي سنة تخرجي في الجامعة ترددت في أن أتزوج الفتاة التي أحببتها، كيف أتزوج والتابعي ليس متزوجاً؟! "

" ليس هناك أحد من الناجحين في الصحافة ولا في الأدب متزوج: لا التابعي، ولا توفيق الحكيم، ولا العقاد، ولا مصطفى أمين، ولا فكري أباطة، ولا.. ولا.. ولا أحد متزوج من الأساتذة الكبار الذين أريد أن أصل إلي مستوي نجاحهم، فقط طه حسين، لكن لا أريد أن أكون طه حسين "

"وتصادم التردد مع الحب يكاد يقتلني، إلي أن ذهبت إلي التابعي وشكوت له تردي، وكنت أعتقد أنه سينصحنى بالعدول عن الزواج أو علي الأقل تأجيله إلي أن أتأكد من مستقبلي، لكن بالعكس نصحنى التابعي بالزواج، بل ألح ثم دعاني وحببني إلي بيته ودعا معنا المأذون وزوجنا، وضعني في إطار يحميني من إغراءات ومتاعب النجاح لو قدر لي أن أنجح، بل إنه وضعني في الوضع الذي لا يمكن أن أنسي فيه المستقبل. فالزواج يضطرك أن تحسب حساب المستقبل وأنت تحسب حساب الحاضر، والتابعي كان يعيش كل نجاحه وكل عبقريته وكل فنه لحظة بلحظة دون أن يحسب حساب المستقبل، وربما لم يبدأ في حساب المستقبل إلا بعد أن تزوج مؤخراً، وبعد أن كان قد تعود أن يعيش الحياة لحظة بلحظة".

نشأته العائلية وجهته إلى الصحافة تدريجياً

لاشك في أن نشأته قد وجهته إلى الصحافة توجيهاً تدريجياً وطبيعياً نحو الإعلام والأعلام في وقت واحد ، إذ جمع بين ما أتيح له من معرفة الأعلام عن قرب، وممارسة الإعلام بمعناه الواسع، فقد كان وهو صبي يلتقي في مكتب والدته بأمر الشعراء أحمد شوقي، وكان مالكا لأحد العقارات التي اتخذت روز اليوسف من أحد مكاتبها (أو بدرومها) مقراً لصحفيها، والأستاذ عباس محمود العقاد، الذي كان المحرر الأول في المجلة التي تحمل اسم والدته، والأستاذين محمد توفيق دياب، ومحمد التابعي.

تأثره بوالديه

من المفهوم أن السيدة روز اليوسف هي أكثر من أثر في حياة إحسان فهي التي وفرت له الجو والبيئة، وسلمته المسؤولية وهو في صدر الشباب ، كذلك فقد تأثر إحسان بوالده الفنان محمد عبد القدوس، وهو التأثير الذي تحدث عنه إحسان نفسه باعتزاز وتقدير، وإذا كان هناك مَنْ تعلم إحسان الكتابة منه قبل غيره فهو هذا الوالد.

ونحن نعتقد أن إحساس عبد القدوس تأثر بالأخوين مصطفى أمين وعلي أمين تأثراً لا مثيل له من بين كل التأثيرات التي مرت به في أثناء تكوينه، وهو تأثير بالتمايز والاختلاف في معظمه، وإن لم يخل من قليل من التشابه والتشبع بالصنوين القريبين في السن والطبقة (ولدا ١٩١٤، وولد هو ١٩١٩).

تحديد رجاء النقاش لأساتذته : التابعي والعقاد و عزمي

نجح الأستاذ رجاء النقاش في أن يلخص التكوين الفكري لإحسان عبد القدوس من وجهة نظره، الجديرة بالاحترام، وإن كان قد تجاهل تماماً التأثيرات الثلاثة التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، وركز علي تأثيرات أربع أخرى عدها هي الأساس، وذلك حيث قال:

"في ظني أن أساتذة إحسان الكبار بعد والدته هم محررو روز اليوسف الأوائل: التابعي، ومحمود عزمي، والعقاد . من التابعي تعلم إحسان أسلوب الكتابة، والتابعي هو عميد الأسلوب الصحفي المعاصر بلا منافس له في هذا المجال، إنه أستاذ الأساتذة، وساحر الكلمة الصحفية، ومعلم الأجيال. وإحسان عبد القدوس خرج في أسلوبه من معطف التابعي، ثم ارتقى بنفسه وموهبته حتي أصبح واحدا من أكبر أصحاب الأساليب في الصحافة العربية، فعبارته سهلة موسيقية، مليئة بالعدوية، والجادبية، والجمال".

"وتعلم إحسان من محمود عزمي نظرتة التقدمية إلي مشاكل الحياة والمجتمع والإنسان، فقد كان محمود عزمي كاتباً ومفكراً كبيراً، وكان من أعظم دعاة التجديد والتقدم، وقد ذهب به التطرف في هذا المجال إلي حد الدعوة إلي لبس «القبعة» بدلا من الطربوش، والعمامة، فقد كانت القبعة عنده رمزا للحضارة الحديثة، والانتماء إليها ، وقد ظل إحسان عبد القدوس طيلة حياته يكتب بهذه الروح التقدمية التي تدعو إلي التجديد، وكسر القيود، وخاصة في مجال العواطف الإنسانية والعلاقات الاجتماعية، وهو صاحب أكبر دعوة في العصر الحديث لتحرير المرأة عاطفياً وعقلياً بعد الرائد الأول قاسم أمين.

"أما العقاد فقد تعلم منه إحسان عبد القدوس جرأة الكاتب، وفروسية صاحب القلم، والاشتباك العنيف مع الأفكار الخاطئة، والمواقف التي ينبغي هدمها لإفساح الطريق أمام عالم جديد، متقدم ومستنير".

فضل والدته في نبوغه الصحفي

بدأ إحسان عبد القدوس الكتابة المنظمة في المجلة الأسبوعية التي تحمل اسم والدته روز اليوسف ، ثم تولي رئاسة تحرير مجلة روز اليوسف (١٩٤٥)، وكان قد كتب في ذلك العام مقالا شهيراً بعنوان "هذا الرجل يجب أن يذهب"، وكان يقصد لورد كليرن بطل أحداث ٤ فبراير، وسرعان ما جعل منه هذا المقال نجما لامعا في عالم الصحافة، واقتيد بسببه إلي سجن الأجانب الذي كان يقع عند تقاطع شارع رمسيس مع عماد الدين .

وقد ظل إحسان عبد القدوس محتفظاً برياسة تحرير مجلة روز اليوسف منذ ١٩٤٥ وحتى تم تأميم الصحف، لكنه تولى رئاسة مجلس إدارة مؤسسة روز اليوسف عام ١٩٦٠ بعد تأميم الصحافة، وكان هو رئيس مجلس الإدارة الوحيد الذي بقي في منصبه من بين أصحاب الصحف، وذلك بسبب صغر حجم مؤسسته من ناحية، وبسبب أنه كان مع ورثة والدته الملاك الوحيدين للمؤسسة، وما لبثت أجهزة الدولة (١٩٦٢) أن استغنت عن وجوده رئيساً لمجلس الإدارة، وعينت غيره في هذا الموقع بينما عين هو عضواً منتدباً لمؤسسة روز اليوسف، وفي ١٩٦٤ أقيمت أيضاً من هذا الموقع على أن يشترك في تحرير روز اليوسف، وظل كذلك حتى ١٩٦٦، وكان هذا بالطبع كرمًا من أجهزة الثورة التي تركت له شيئاً يفعله بعد ثلاث سنوات من التأميم.

الاستعانة به رئيساً لتحرير أخبار اليوم

مع فشل الثورة في فرض رؤساء تحرير للأخبار من أتباعها (!! اضطرت إلي الاستعانة بإحسان رئيساً لتحرير أخبار اليوم (١٩٦٦)، وسرعان ما ارتفع توزيع أخبار اليوم بعد أن كاد يتلاشى، وقد بقي إحسان في المنصب حتى عام ١٩٧٤، وعين بالإضافة إلي رياسته لتحرير أخبار اليوم الأسبوعية رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم في عهد السادات (١٩٧١ - ١٩٧٤)، وهكذا عاد إليه بعض حقه، وكأنما كان إحسان بحكم القدر هو ذلك الرجل الأمين الذي تولى حراسة تراث الأخوين المنافسين له طيلة فترة بقائهما في المنفي والسجن، وكأنما كان هذا تعويضاً إلهياً عن ممارسات الأخوين المتصلة في خطف مواهب تبناها إحسان في روز اليوسف، والإفادة منها في مؤسسة أخبار اليوم، وقد واصل إحسان عبد القدوس نجاحه في أخبار اليوم معتمداً علي التقدير لشخصه وسلوكه، لكنه آثر ترك المؤسسة كلها عند عودة علي أمين من المنفي وخروج مصطفى أمين من السجن ذلك أنه وبعد أن عين علي أمين رئيساً لتحرير الأهرام خلفاً لمحمد حسنين هيكل، أدرك إحسان بذكائه أن مكانهما الطبيعي في أخبار اليوم لا في غيرها. وهكذا فإنه عين كاتباً متفرغاً بصحيفة الأهرام ١٩٧٤ - ١٩٧٥ استجابة لطلبه، ثم عين رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام ورئيساً لتحرير الأهرام ١٩٧٥، وترك منصبه بالأهرام

(مارس ١٩٧٦) وعين كاتباً متفرغاً ومستشاراً لها (١٩٧٦) وبقي حتى وفاته. وبهذا فانه كان بمثابة الصحفي الوحيد الذي ترأس مجالس إدارات هذه المؤسسات الثلاث، كما ترأس التحرير فيها. وكان حتي مع غياب البروتوكول في مناصب الصحافة كان صاحب المكانة المتقدمة بروتوكولياً بين كبار الصحفيين ولم يكن يسبقه إلا فكري أباطة وقد كان إحسان عبد القدوس علي سبيل المثال عضواً في المجلس الأعلى للصحافة منذ تشكيله.

زيارته لفلسطين ١٩٤٦ وتوقعه للهزيمة

ومنذ السنوات الأولى لممارسة الصحافة بدأت اهتمامات إحسان عبد القدوس السياسية تتسع، وقد اهتم ببوادر حرب فلسطين، وتنبأ بهزيمة العرب في فلسطين بعد زيارة له إلي هناك (١٩٤٦).

سجنه و محاولات اغتياله

وأدت به آراؤه الجريئة وغيرته الوطنية إلي أن أدخل السجن ثلاث مرات بتهم مختلفة، كما تعرض للاغتيال أربع مرات علي الأقل، وتعرض لكثير من الاعتداءات العارضة، و التحرشات القاسية علي نحو متكرر. وقد سجن عام ١٩٤٥ بعد مقاله الذي نشر في روز اليوسف وهاجم فيه لورد كيلرن .

كما سجن عام ١٩٥٤ بعد مقالاته التي نشرت بمجلة روز اليوسف والتي هاجم فيها مجلس قيادة الثورة "الجمعية السرية التي تحكم مصر" وأودع بالسجن الحربي في زنزانة انفرادية (رقم ٩١) ظل فيها طيلة الفترة ما بين ٢٩ أبريل ١٩٥٤ حتي ١٣ يوليو ١٩٥٤.

وقد تعرض للاغتيال في يوم ٣١ نوفمبر ١٩٥١ بالطعن بألة حادة في رأسه. كما تعرض للاعتداء في عام ١٩٧٥، ونسب الاعتداء إلي معمر القذافي رئيس ليبيا.

رفض الأميركيان إعطاءه التأشيرة لأنه زعيم شيوعي

وفضلاً عن هذا، ولعله لا يقل عنه أهمية، فقد كان إحسان عبد القدوس علي الدوام من البعيدين عن دوائر السياسة والدبلوماسية الأجنبية على الرغم مما تحفل الوثائق الغربية عن لقاء ممثليها به ، ولم يعرف عنه فخر ولا زهو بمعرفته بممثلي الغرب في مصر، ولا بممثلي الشرق، ويذكر له في هذا المجال أنه عندما تقدم إلي السفارة الأمريكية عام ١٩٦٠ يطلب تأشيرة دخول الولايات المتحدة رفض المسؤولون في السفارة إعطاءه التأشيرة بحجة أنه زعيم شيوعي.

الدور السياسي الحقيقي للصحفي الناجح

وقد ظل إحسان عبد القدوس على الرغم من لمعانه المجتمعي ، واعياً لحقيقة الدور السياسي الحقيقي للصحفي الناجح، ولم يورط نفسه في علاقات سياسية محسوبة ولا غير محسوبة، والواقع أن هناك أسباب كثيرة ساعدت إحسان علي هذا التوجه الصائب، وقد كانت ثقته في نفسه في مقدمتها، كما كان إيمانه بالفن وبالمهنة من هذه الأسباب، كما كانت تربيته الجادة التي جمعت بين تقديس القيم وبين حب العمل واحترام الذات سبباً ثالثاً.

وقد كان وعيه بدور الصحافة تعبيراً عن إيمان حقيقي، وهو ما يظهر في قوله: "مهمة الصحفي تتيح له دائماً أن يعاشر الوزراء وأصحاب النفوذ، وتتيح له أحياناً أن يرفع الكلفة بينه وبينهم، ولكن الصحفي الذي يحترم نفسه يجب ألا يكون سمساراً، ويجب أن يقصر اتصالاته علي واجبات مهنته، ويجب أن يكون ناقداً لا متملقاً". ولهذا فقد كانت عقول القراء العرب، تدرك قيمة إحسان عبد القدوس من حيث ارتباطه بالحرية، والنهضة، والتقدم، وكان قلم إحسان منحازاً إلي هذه القيم في الوقت الذي كان معظم الآخرين منحازين إلي قيم أخرى فقد تبدو براقة ومثالية وذكية لكنها في النهاية قيم قصيرة النظر.

تصوير صلاح جاهين لشخصيته

رسم صلاح جاهين لإحسان صورة جميلة علي هيئة الكاتب المصري في أغسطس ١٩٥٥، وكتب تحتها: "الكاتب المصري صحي شعبنا النعسان، وعلمه كلمة "الحرية" و"الإنسان"، وكلمة "الثورة" أهداها لكل لسان، عاشت بلادنا وعاش الكاتب المصري وعشت للشعب كاتب مصري يا إحسان".

أقل زملائه نقدا للنماذج الطفيلية

علي الرغم من أن إحسان عاني ممن وصفهم هو نفسه بالنفاق والتملق والسمسرة، إلا أنه كان أقل زملائه تعرضا للانتقاد للنماذج الطفيلية والفيروسية التي تصدرت المشهد الصحفي ثم بدأت في ممارسة الادعاء من خلال جوقة من المخدوعين أو المأجورين، وقد كان، علي حسب ما رواه موسي صبري، يري هذا السلوك نوعا من التقاهة.

بيد أنه لا يجوز لنا أن نغفل الإشارة إلي عمل فني عظيم قدمه إحسان علي هيئة قصة طويلة بعنوان "غابت الشمس ولم يظهر القمر"، محللا علي طريقته سيرة حياة صحفي مصري بارز كان قد نشر لتوه كتاباً في الهجوم علي الرئيس السادات وعهده، معرضا بسيرة حياته، وقد جاء كتاب إحسان عبد القدوس الذي لاتزال جميع نسخه تنفذ بمجرد طبعها، بمثابة أكبر ثأر للوجدان الشعبي من السلوك المقزز لهذا الصحفي الذي أصاب الكثيرين بالغثيان.

بعض نصوصه التي جلبت له المتاعب

وربما كان من المهم هنا أن نقدم الإشارة إلي بعض نصوص إحسان عبد القدوس التي جلبت له المتاعب. كتب إحسان عبد القدوس في الهجوم علي لورد كيلرن ٩ أغسطس ١٩٤٥:

"... كان جنابه قبل المعاهدة مندوبا ساميا، وأصبح بعد المعاهدة سفيرا ليس إلا، أي لا تتعدي حقوقه وسلطاته حقوق وسلطات فخامة محمود جم سفير إيران في

مصر، إلا فيما نص عليه البروتوكول ، فهل مركز لورد كيلرن بيننا هو مركز السفير؟. أبدا.. بل إنه أعطي لنفسه حقوقا فاقت حقوق المندوب السامي في بلد مستعمر، والرجل الذي يفتحم قصر عابدين علي رأس فرقة من الدبابات ليس سفيرا ولا مندوبا ساميا، إنما هو قائد لجيش معتد!!».

" قد لا يكون من اللياقة الدبلوماسية أن نعدد مدي أخطاء السفير البريطاني في حق استقلالنا، أو نعدد الإنذارات الشديدة اللهجة التي أرسلها إلي حكوماتنا المختلفة، أو نبين خطورة الصداقات التي تربطه ببعض رجالنا، وإنما نحن علي استعداد لأن ننسي كل ذلك، وأن نبدأ صفحة جديدة في تاريخ العلاقة المصرية - الإنجليزية، ولكننا لا نستطيع أن ننسي طالما أن وجه فخامته يطل علينا، ولا نستطيع أن نكتب صفحة جديدة مادامت اليد التي ستشترك معنا في كتابتها هي اليد التي كتبت الصفحات القديمة!! وسواء كانت السياسة التي اتبعت والتي ستتبع هي سياسة الحكومات الإنجليزية نفسها، أو كانت سياسة السفير نفسه، فإن المسألة "سمبائي" ومسألة ثقة الشعب في الرجل الذي يتعامل معه ، واسألوا الشعب هل بينه وبين لورد كيلرن سمبائي؟ أو هل له فيه ثقة؟!".

إشادة محسن محمد بالشجاعة التي وصل لها

لفت الأستاذ محسن محمد النظر إلي مدي الشجاعة التي تحلي بها إحسان عبد القدوس في هذا المقال فقال:

"حكم لورد كيلرن مصر ٢١ سنة دون أن يجراً مصري واحد علي أن يهاجمه علنا أو بالاسم، لكن إحسان عبد القدوس كان الصحفي والسياسي المصري الوحيد الذي هاجمه في مقال شهير في روز اليوسف، والحرب العالمية الثانية مشتتة وونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا يؤيد سفيره في مصر في كل شيء حتي في عزل فاروق ملك مصر، ومن هنا كان هجوم إحسان عبد القدوس وهو بعد شاب صغير يعتبر انتحارا صحفيا وسياسيا".

بدأ توهجه حين كتب عن الأسلحة الفاسدة

بدأ إحسان عبد القدوس توهجه الساحق حين كتب عن قضية الأسلحة الفاسدة سلسلة من المقالات تحت عنوان: "محاكمة مجرمي حرب فلسطين"، ولا شك في الحقيقة القائلة بأن إحسان عبد القدوس هو صاحب الفضل الأول في حملة الأسلحة الفاسدة التي انتقدت دور بعض أجهزة الحكومة المصرية والحاشية الملكية (والمك فاروق بالتالي) في تزويد القوات المصرية في فلسطين بأسلحة فاسدة خلال الحرب الفلسطينية (١٩٤٨)، وتعرض إحسان عبد القدوس بعد إثارته هذه القضية إلي أولى محاولات اغتياله بالطعن بالسكين من الخلف. وقد تصاعدت حدة العداء بين إحسان ومجتمع روز اليوسف من ناحية، وبين عدد من الرسميين، لكنه كان يخرج في أغلب معاركه، بل في كلها تقريبا منتصرا، وعلي سبيل المثال فإنه نشر أربع مقالات (١٩٥٠)، أجبر بعدها الفريق حيدر علي الاستقالة من منصبه.

سعة صدر النحاس باشا

كان السياسيون الليبراليون وفي مقدمتهم النحاس باشا يقدرون لإحسان عبد القدوس شجاعته، وكانوا بطبعهم يتعففون عن حربه في رزقه أو في مجده، وليس أدل علي هذا من أنه هاجم النحاس والوفد هجوما عنيفا (١٩٥١) في مقاله الشهير "دولة الفشل" بينما الوفد في السلطة، ومع هذا فإنه لم يصبه أي أذي على الإطلاق من الوفد أو النحاس باشا، مع أنه وصف النحاس بأنه فاشل، ووصف وزرائه واحدا واحدا بالفشل مقدما أسباب هذا الحكم القاسي عليهم علي نحو ما نقرأ في مقاله.

رغم موافقه لم يكن وفديا

ومن الطريف أن إحسان عبد القدوس الذي كان يهاجم الملك ويهاجم دار المنسوب السامي البريطاني، لم يكن وفديا، وهذا أمر مفهوم بالطبع في ظل العداوة القديمة التي استحكمت بين والدته روز اليوسف ومجلتها من ناحية، وبين النحاس باشا والوفد من ناحية أخرى، وذلك بعد الخلاف الحاد الذي وقع بين الطرفين وحول روز اليوسف من مجلة الوفد الأثرية إلي مجلة معادية للوفد، وقد هاجم إحسان عبد القدوس

الوفد باعتدال لكن بعض مقالاته لم يخل من قسوة، ومنها الشهير (١٩٥١) في أثناء وزارة النحاس باشا الأخيرة، وفيه تعريض بكل الوفديين الكبار:

"إننا في مصر نؤمن بالفشل ونعبد الفاشلين... الفشل في كل مكان، وأمام كل خطوة، ووراء كل زعيم، وفي حنايا كل ملف، وفي ظلام كل درج، وفي طيات كل صوت، والفاشلون هم الذين يحكمون مصر، وهم الذين يتولون مقاديرها، وهم الذين يسوقونها من فشل إلي فشل، ثم إلي فشل. رئيس الوزراء فاشل كبير، فشل في أن يحقق أهداف مصر القومية، وفشل في أن يصون نزاهة الحكم، وفشل في أن يحتفظ بقوة الشعب، وفشل في أن ينتصر للدستور، وفشل في أن يوفر قوت الشعب، وفشل في أن يجمع من حوله وزراء ناجحين، وفشل في أن يصلب عوده أمام الأزمات، بل انحني لها حتى أصبح يتقدم إلي الوراء زاحفا علي بطنه".

"والوزير الذي يتولى القضية الوطنية، وزير فشل، فشل في أن يحقق أهداف مصر، وفشل في أن يصون كرامة وطنه، وفشل في أن يغطي فشله، وترك وجه مصر تكويه صفعات الإنجليز، وسمع بأذنه أن لا أمل في الجلاء، وأن لا أمل في الوحدة، فلم يقاوم ولم تهده عبقريته، أو وطنيته، إلي طريق جديد يسير فيه، إنما استمر في طريق الفشل لا يحيد عنه، ولا يخجل منه، ولا يداريه، ورغم ذلك فلا يزال وزيراً مهماً من وزراء مصر".

"والوزير الذي يتولى شئوننا المالية وزير فاشل، فشل في أن يجعل من ميزانية مصر ميزانية محترمة، وفشل في أن يوقف التضخم المالي، وفشل في أن يرضي الطوائف، وفشل في أن يمول المشروعات الكبرى، وفشل في أن يفرض إرادته علي الأغنياء، وفشل في أن يوقف شهوات أصحاب النفوذ، وفشل في أن يصون مال الدولة من أيدي المختلسين والمصطافين و"المراقيع" الطامعين".

"وهو نفسه وزير الداخلية، وقد فشل في أن ينأى بالإدارة الحكومية عن الحزبية، وفشل في أن ينشر الاطمئنان والاستقرار في كل قرية، وفي كل مديرية، وفي صدر كل عمدة، وكل مأمور، وكل كونستابل، وشيخ خفر، وفشل في أن يضع للجريمة حداً، وللوساطات حداً، وللخلاعة حداً".

"وزير الحربية فاشل، فشل حتي في الاحتفاظ باختصاصه، وترك الجيش يخرج من بين يدي الحكومة والشعب، يكون هيئة كهنوتية لها أسرارها، ولها سلطاتها، ولها استقلالها، ولها قائد فاشل".

"وزراء التموين والأشغال والتجارة... إلخ، كلهم فاشلون، وكلهم لا يدارون فشلهم، بل يفخرون به".

"والرجل الذي يتولى شئوننا العربية فاشل بطبيعته، فاشل من يوم ولد، ولا يكاد يري إلا والفشل من ورائه، اشترك في حرب طرابلس فشلت الحرب، واشترك في وزارة علي ماهر فشلت الوزارة، وفشل علي ماهر، وساهم في إنشاء الجامعة العربية فشلت، ونظم حرب فلسطين فشلت، وساهم في حركة تحرير ليبيا ومراكش.. إلخ فشلت كل حركات التحرير التي اشترك فيها، ورغم ذلك فهو يعتمد علي هذا الفشل في الاحتفاظ بمنصبه، وفي تجديد مدة خدمته كلما ارتفع صوت بإبعاده".

"والمعارضة يتولاها زعماء فاشلون، فشلوا في اكتساب ثقة الشعب، وفشلوا في مواجهة الحقائق السافرة، وفشلوا في وقف طغيان الحكومة وأخطائها".

"كلهم فاشلون.. و رغم ذلك فليس بينهم واحد يخاف من فشله أو يندم عليه، بل إن هذا الفشل هو الذي يؤهله لحكم مصر، وهو الذي يحتفظ له بسطوته ونفوذه، وهو الذي يؤهله للمنصب وللجاه، وهو الذي يقدمه علي خلق الله ويضعه فوق رءوس الناس. إن قائمة الفشل في يد أي رجل من رجالات مصر هي التي تفتح له الأبواب، وهي التي تمهد أمامه الطريق، وهي التي تقربه وتحقق أحلامه، وكم من زعيم أو رجل فشل، وقلنا: لن يعود، فإذا به يعود موفور السلطان والجاه، ليفشل مرة ثانية، ثم ليعود مرة ثالثة".

"وويل للناجحين : ويل للحر الأبوي الذي يخشي ضميره، ويخشي الله في وطنه». و ويل للكفاء الذي ينظر إلي الأمور نظرة جديية، ويعمل متعمدا النجاح لا متعمدا الفشل ، ويل لمن يحاول أن يجعل من مصر دولة منتصرة ناجحة".

"ويل للكفاء ، فالأبواب تغلق من ورائه ومن أمامه، والجبروت الظالم يطارده أينما حل، والتهم المقتراة تلاحقه في كل يوم، فإن كل عاقل وطني ناجح معناه في مصر أنه شيوعي، أو أنه متطرف يسعي لقلب نظام الحكم".

"اطردوا الفاشلين.. ودعوا الناجحين يأخذون مكانهم من قيادة مصر، و جربوا صنفا آخر من الرجال غير هذا الصنف الذي أثبت فشله.."

" وارحموا مصر"

هذا الفصل

نشر هذا الفصل في جريدة التحرير بعد ثورة يناير ٢٠١١ .

الفصل الثامن

الدكتور عاطف صدقي والجائزة الكبرى

يجيد العمل لا الحديث

ما من مصري إلا وشعر بالسعادة البالغة والنشوة العارمة والفرحة الغامرة لفوز الدكتور عاطف صدقي بجائزة مبارك في العلوم الاجتماعية ، فعاطف صدقي واحد من القلائل بل من النادر الذين تحقق للوطن علي أيديهم كثير من الخير واليمن والتقدم والتحديث والتنمية والإصلاح والرقى والازدهار والاستقرار .

و الدكتور عاطف صدقي نموذج بارز متجسد للعلماء الذين يعرفون أقدارهم ويعرفون حقوق الوطن عليهم ، فيحتفظون لأنفسهم بحقوقها من الاحترام الواجب والثقة المتزنة من دون أن يجعلهم هذا يبخلون علي وطنهم أو علي أبنائه بما حباهم الله به من قدوة وقدرة وقوة .

و الدكتور عاطف صدقي واحد من العاملين المخلصين الذين يجيدون العمل ويجيدون الحديث عن عملهم بتجنب الحديث نفسه إلا إذا ما أصبح القول جزءاً مكملًا للعمل لا يكتمل الإنجاز بدونه، فهو يحجم عن التصريحات والتبشيرات والإرهاصات والتلميحات والإشارات إلى أن يصبح مشروع القانون كامل النضج فإذا تصريحه يقتصر علي القانون، وإذا شرحه يقتصر علي مذكرته التفسيرية ، وإذا تبشيره يتحول إلي فكرة سائرة علي قدمين، وإلي معتقد لا يلبث شعبه كثيراً حتي يعتنقه ويدافع عن وجوه الصواب فيه.

رجل دولة صبور دؤوب وامتزن

وهو سياسي صبور دؤوب، ولعله أبرز من حولوا الصبر إلي دأب إيجابي، فهو لا يصبر علي المشكلات التي تواجهه منتظراً دور الزمن في حلها ، ولكنه يحيل هذا

الصبر إلي دأب يتناول كل جزئية من هذه الجزئيات بالدراسة والحل حتي ينتهي منها فينصرف إلي غيرها من الجزئيات ، وهكذا فإنه في قيادته للإصلاح الاقتصادي كان يتغلب علي الآثار الجانبية وعلي المضاعفات في الوقت الذي كان يتابع فيه العلاج.

ساعدته ثقافته الرفيعة وتمكنه العلمي المتميز وأصوله السامقة علي أن يدرك ما عجز عنه مناظروه ومعاصروه ومنافسوه من أن جوهر الحكمة يكمن في الاستمرار في منهج الإصلاح، حتي لو بدت ظواهر مبكرة لمضاعفات أو آثار جانبية لهذا المنهج.

ولهذا فإن الدكتور عاطف صدقي استثمر ما نماه فيه خلقه وفكره من التعادلية العلمية والفكرية فنأي بنفسه عن أن يكون مبشراً بكل ما يقتنع به، وتحول إلي صورة الحكيم الذي ينصح بالدواء دون أن ينكر آثاره الجانبية المحتملة مهما بدت نسبة حدوثها ضئيلة الاحتمال، بل إنه كان حريصاً علي أن يشير ويوصي ويمضي في سبيل إنشاء المؤسسات والإدارات الكفيلة بعلاج الآثار الجانبية لخطط الإصلاح التي أشار بانتهاجها أو قرر الأخذ بها ، وهكذا كانت محصلة إنجازاته أقوى من أن تتأثر بعواصف السياسة وأعاصيرها.

واسع الأفق

وقد تميز الدكتور عاطف صدقي بسعة أفق من طراز نادر مكنته من أن يتجنب ويتحاشى تلوين آرائه وإصلاحاته وقراراته وسياساته بأية نزعة أيديولوجية، علي الرغم من قدرته غير المحدودة علي الأدلجة، ولكن عنايته بثمار استراتيجيته كانت أكبر من أن يبحث لها عن تصفيق سريع هنا أو تشجيع عال هناك .

وقد بلغ من سمو علمه وعقله أنه لم يورط نفسه في اختراع أو تلفيق أو تطوير لما هو مستقر في أدبيات الاقتصاديات العالمية فكان ينفذ خطط الإصلاح علي نحو ما استقرت في الأدبيات العلمية بكل تشريعاتها ونظمها وحوافزها وقيودها، ولم يندفع

ولا تورط في وضع « التعديلات » قصيرة النظر عليها من أجل أن يحظى بموافقة قوي صانعة للرأي العام أو مؤثرة علي اتخاذ القرار من أي نوع أو طراز ،

ولم يكن هذا وحده بكاف لتحقيق ما حقق من نجاح لولا أنه في المقابل وفي المواقب قد تغلب علي كل المعارضات المتوقعة لخطته بإنفاذ العلاج علي نحو متدرج، وبالصبر علي الثمار حتي توتي أكلها فيكون هذا الإثمار الحقيقي والمبكر في حد ذاته أكبر معين علي إقناع القوي السياسية من شعبة بقبول سياساته وإصلاحاته.

قيادة الفريق

كان الدكتور عاطف صدقي موقفا إلي حد بعيد في اختيار معاونيه ، وقد ساعده علي هذا ثلاثة أمور:

- أولها: أنه لم يعرف عنه فيما قبل وصوله إلي رئاسة الوزارة تكوين طوائف متملقين من حوله ولهذا وفق في تجنب التورط في كثيرين ممن كانت ترشحهم الأضواء للتساقط المبكر علي مائدته.
- وثانيها: أنه لم يكن من أنصار الآراء العمومية في الشخصيات ولا الأفكار سابقة التجهيز عن رجال العمل العام ولا يزال هذا الخلق يميزه حتي الآن.
- وثالثها: أنه كان يقدم التفكير في الوظيفة علي التفكير في الشخص، وليس سراً أن بعض اختياراته جاءت نتيجة استيفاء من اختيار لمواصفات محددة سلفا وضعها لمن تحتاجه الوظيفة، بل يمكن القول بأن كل الذين عملوا معه من دون معرفة سابقة جاءوا بهذه الطريقة .

الاختيارات الصائبة

ومع هذا كله فإن عاطف صدقي قد استثمر معلوماته الوظيفية السابقة كلها في الإفادة من كل من عرفهم في مواقع تتناسب مع مؤهلاتهم وكفائتهم، وبعض وزرائه

مروا بالوزارة المهمة مرور النسيم دون أية مشكلة أو بروز مقلق أو استثناء مؤرق، وخرجوا منها علي نحو ما كانوا فيها وما كانوا قبلها وهم من أبعد الناس علي الأضواء والضجيج ، ولكنهم مع هذا أنجزوا ما لم ينجزه أسلافهم ولا خلفاؤهم ، وما كان لهم أن يعملوا وزراء ناجحين ولا أن يقبلوا هذا العمل من أساسه لو لم يكن عاطف صدقي هو رئيس الوزراء .

الخطط والتصورات والحلول

ولعل أحد الأمثلة الناجحة في تقييم جوهر شخصية عاطف صدقي وإدراك سموها يكمن في تأمل علاقته بالأرقام، فهو يحترم الأرقام ويعول عليها كأداة لوضع الخطط والتصورات والحلول ومجابهة المشكلات والطموحات، ولم يكن يعول عليها لإظهار قدرته الظاهرية علي الاستيعاب، ولا لإظهار قدرته علي المزايدة علي أحلام الجماهير واستخدام الأرقام بتعسف يفوق طاقاتها علي التحمل..

كأني أريد أن أقول إن الدكتور عاطف صدقي كان يوظف الأرقام لما خلقت له ولم يكن يوظفها في الفخر أو الخداع، ومن ناحية أخرى فإنه ظل معنيا بالأرقام المهمة ذات المعني ، التي يترتب علي معرفتها والإلمام بها التحول الهادئ إلي مسار أكثر صوابا، ولم يكن معنيا بالأرقام الكثيرة المملة التي تبدو وكأنها تنفي تهمة التقصير أو مغبة الجهل.

وفي اختصار شديد فإن الدكتور عاطف صدقي كان يشركنا في الاستمتاع بلغة الأرقام، ولم يكن كغيره يخدعنا بها أو يمن علينا بمعرفته بها.

تقبل النقد

وقد جمع الدكتور عاطف صدقي إلي تفوقه الأكاديمي ونجاحه السياسي رحابة صدر لا حدود لها ، فكان أكثر الناس ترحيبا بالنقد وتقبلا له ، ولم تدفعه اقتناعاته إلي التقليل من شأن منتقديه، بل كان يتلمس لهم العذر لأنه كان يعرف ما لا يعرفون ، ويدرك ما لا يدركون ، ويملك ما لا يملكون، ويُسأل عما لا يسألون عنه ، وكانت

رحابة صدره خلقا طبيعيا ذاتيا كالتنفس يمارسه دون ادعاء ودون انتظار للحصول علي الثناء عليه .

وهكذا فإنه لم يفاخر أبدا بسعة صدره ولا برحابة فكره، كما أنه لم يفاخر برحابة عقله أو صواب منطقته، وظلت ثقته في نفسه تعبر عن نفسها يوما بعد يوم بالصورة الأبلج و الأبلغ من التعبير، وهي أن تكون الثقة في النفس حقيقة وطبيعة ، وخلقاً ، وسمه وملمحا دون حاجة إلي إثبات أو برهنة أو دليل أو طنطنة أو شقشقة أو سفسطة.

التواضع

وقد تميز عاطف صدقي طيلة مسيرة حياته بالتواضع، وكان تواضعه يزداد كلما ارتفع مقامه، وارتفعت درجته، كما كان تواضعه صادقا ومحيبا إلي النفس لأنه ظل علي الدوام خاليا من الاصطناع متجرداً عن القصد، فهو متواضع لأنه يحب التواضع ويعيشه، لا لأنه يحب أو يتمني أن يقال عنه متواضع، أو ليتغلب بهذا التواضع علي رغبات دفيئة بالتعاضم أو التسلط.

حبه للخير أبرز صفاته

أما صفاته البارزة التي لم تخنف عن الناس بحقيقتها الكاملة فتلاث: حبه للخير، واحترامه للغير، وذاكرة فولاذية ، فأما حبه للخير فكان لا حدود له ، ولم يقف في طريق إنسان كائنا من كان ما دامت رغبته مشروعة أو ما كانت حاجته قائمة، ولم يتعسف في تفسير أي نص قانوني من أجل الحد من مصالح مرؤوسيه أو مواطنيه، بل كان علي النقيض أميل لخدمة أكبر عدد ممكن من الشعب مادام هذا ممكنا أو جائزا أو محتملا ، وكان يستعين بسلطته التنفيذية والأبوية علي توفير التمويل حين يكون التوسع في منح المزايا مكلفا.

احترامه للغير

أما احترامه للغير فقد لا يتبدى إلا إذا تأملنا بعمق وتعمق علاقته بأقرانه ونظرائه ومعاصريه من الساسة والعلماء والأكاديميين به، وهي علاقة حسنة في مجموعها

جميعاً، ولكن الفضل في هذا الحسن يعود إليه بأكثر ما يعود إلي أقرانه ، ويكفي أنه يحظى بقبول فائق في رئاسته المستمرة للجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع ، وفي رئاسته للجنة قطاع الدراسات الاقتصادية في المجلس الأعلى للجامعات، وفي غير هذا من مواقع العلم والتعليم والبحث.

ذاكرته الفولاذية

وأما ذاكرته الفولاذية فمدهشة لمن يعرفونه ويحاولونه، وهي ذاكرة قادرة علي الانتقاء لأنها لا تنشغل بتوافه الأمور، ولا بمطالب البشر، ولكنها تنبه إلي ما في شخوصهم من مزايا، وما في جواهرهم من فائدة ، وما في إنجازاتهم من قيمة ، وهو قادر علي أن يثني علي مَنْ يبدو مجهولاً تماماً بموقف مشرف وقفه ذات يوم ثم نسيه التاريخ، كما أنه في الوقت ذاته قادر علي أن يجد في أولئك الذين يعرفون علي أنهم إخوان الشيطان بعض ملامح المهارة التي لا بد من استثمارها لمصلحة المجتمع المصري المعاصر.

هذا الفصل

نشر هذا الفصل علي هيئة مقال مطول في جريدة الأخبار تحت عنوان الدكتور عاطف صدقي والجائزة الكبرى بمناسبة حصوله علي أعلى الجوائز المصرية ، جائزة مبارك للعلوم الاجتماعية ، التي تسمى الآن جائزة النيل.

الفصل التاسع

الفريق عزيز المصري

مجموعة من القيم و القدرات

تمثلت في شخصية عزيز المصري (١٨٧٩ - ١٩٦٥) قيم نبيلة متعددة كما تمثلت فيه قدرات عسكرية وسياسية وإدارية من طراز رفيع وكانت حياته من بدايتها إلي نهايتها تعبيرا عن الاجتهاد في الجهاد ، بتوظيف القدرات الفائقة من أجل القيم النبيلة، وقد نجح في كثير من مراحل حياته علي حين تحول فشله في المراحل الأخرى إلي وقود لنجاحات أكبر في مرحلة لاحقة من تاريخ أمته.

ويكفي علي سبيل المثال أن نشير إلي أن عزيز المصري كان بمثابة الأب الروحي لضباط يوليو ١٩٥٢ في مصر، ولعديد من الحركات التحررية في المنطقة العربية.

كان عسكريا عثمانيا متميزًا

كان عزيز المصري عسكريا متميزًا ناجحًا درس العسكرية في المؤسسة العسكرية العثمانية، وأظهر تفوقا مبكرًا في دراسته العسكرية ثم في أدائه كضابط شاب متميز بفضل الثقافة والوعي وسعة الأفق.

وكان من الذين انتبهوا إلي أن العسكرية وأدائها صورة من صور الأداء الوطني في المقام الأول والأخير، وذلك في مقابل الأغلبية التي كانت تعتبر العسكرية وظيفة روتينية ذات مزايا مادية فحسب.

الجمود الفكري والتعصب الطوراني

لم يتشكل فكر عزيز المصري بمعزل عن الحياة العامة وعن مثاليات الأخلاق، وقد أحس كما أحس بعض زملائه من الضباط العثمانيين في الامبراطورية المسلمة بأن عليهم دورًا في إنقاذ الامبراطورية الإسلامية من حالة الجمود الفكري، والتعصب التركي، والتمسك بأساليب عتيقة في الحكم والحياة السياسية.

ولهذا فإنه شرع في التعاون مع مجموعات مختلفة من زملائه، ومن خلال جمعيات متعاقبة كان من طلائع الثوار علي ما آل إليه حال الدولة العثمانية، ولم تكن ثورته في إطار السعي للحصول على مقعد الحكم، وإنما كانت متوجهة في الأساس نحو الإصلاح والتطوير، ولو أن عزيز المصري وزملاءه كانوا من الذين يستهدفون الوصول إلي مقاعد الحكم لأمكنهم تحقيق هذا منذ مرحلة مبكرة، ولكن مثالياتهم والتزامهم هياً لهم أن يتصوروا أن بإمكانهم أن يدفعوا الدولة العثمانية إلى أن تتعافي من المرض السياسي، وأن تتحول إلي نموذج شبيه بالديمقراطيات الغربية التي كانت محيطة بها وبهم.

مشاركته في الانقلاب العثماني

وهكذا فإن عزيز المصري من خلال دراسته في كلية أركان الحرب العثمانية تمكن من أن يدعم تعاونه الفكري مع مجموعة من الساخطين علي ما آل إليه النظام في عهد السلطان عبدالحميد الثاني وأسهم معهم في تكوين جمعية «الوطن» عام ١٩٠٦ وهي الجمعية التي تعاونت مع جمعية أخرى أكثر شهرة منها هي «جمعية الاتحاد والترقي» التي رفعت شعار إقامة دولة عثمانية ديمقراطية، ووضع دستور يكفل المساواة لجميع المواطنين العثمانيين،

وقد تمكن هؤلاء من القيام بالانقلاب التركي الأول في العصر الحديث في العاشر من يوليو ١٩٠٨ ونجحوا في إعلان نجاحهم في إجبار السلطان عبد الحميد الثاني علي إعلان العودة إلي دستور ١٨٧٦.

مشاركته في عزل السلطان عبد الحميد الثاني

ثم كان عزيز المصري أحد القادة البارزين الذين استطاعوا في إبريل ١٩٠٩ أن يقيموا الثورة المقاومة التي قامت على حكمهم ، وأعلنوا في ذلك الوقت عزل السلطان عبد الحميد الثاني ، وإرساله إلي المنفي وتولية السلطان محمد رشاد الخامس مكانه.

اكتشاف الحقيقة واللجوء الى العمل السري

بعد قليل وجد عزيز المصري وزملاؤه من الضباط العرب أن الاتجاه العنصري قد أخذ يتحكم في زملائهم الأتراك الطورانيين الذين شاركوهم في تحقيق الثورة، ووجدوا أن جماعة الاتحاد والترقي لا تريد أن تتخلي عن النزعة القومية المعادية للعرب على الرغم من صعود دعوة العروبة ونزعات القومية العربية في مجالات الفكر و الأدب، وازدهار مراكز الثقافة العربية في مطلع القرن العشرين في القاهرة ودمشق وبغداد والقدس وغيرها من عواصم الولايات العثمانية، علي حد التعبير المتداول في ذلك الحين.

العمل السري مرة أخرى

و هكذا وجد عزيز المصري نفسه مرة أخرى يقود مجموعة سرية عربية أخرى تنسحب من الاتحاد والترقي لتعمل علي تحقيق ما كانت تظنه بمثابة أهداف الأمة العربية التي لم تكن في ذلك الوقت إلا مجموعة من الشعوب «المنظمة» في ولايات عثمانية.

الصلح بين الإمام يحيى وبين الدولة العثمانية

وبحس السياسي الفطري الذكي فإن عزيز المصري قبل التكليف العثماني بالتصدي لثورة الإمام يحيى في اليمن، وتمكن بذكاء من أن يعقد الصلح بين الإمام يحيى وبين الدولة العثمانية في ١٩١١، منطلقا من حرصه علي تقوية العناصر

العربية في أطراف الدولة العثمانية، وعدم تبديد قدراتها ومواردها في مثل هذه الصراعات التي لا يفيد منها أحد.

توظيف قدراته العسكرية من أجل الفكرة العربية

وتكررت تصرفات عزيز المصري التي يمكن النظر عليها على انها تعبر عن نجاحه في توظيف قدراته العسكرية من أجل الفكرة العربية حين شارك في الحرب التركية الإيطالية، وأذاق الإيطاليين صوراً مضنية ومضيئة من بسالة المقاومة الناجحة، وتمكن ، حسب طرحه هو ، من توظيف المقاومة الشعبية الليبية والسنوسية في قوات شبه نظامية نجحت مع القوات العسكرية العثمانية في التصدي للقوة العسكرية الإيطالية الجبارة، وهو ما أدى إلي الحفاظ للمقاومة الليبية علي زخم الندية في معركة غير متكافئة حتي مع انتهاء الحرب بعقد الحكومة العثمانية اتفاقية صلح مع الإيطاليين في سويسرا (١٩١٢).

تورطه في النزاعات مع السنوسيين

وعلي الرغم من اختلاف الروايات والرؤي حول طبيعة موقف عزيز المصري من المقاومة الشعبية الليبية متمثلة في قوات شيوخ القبائل بقيادة عمر المختار وقوات السنوسيين، فان عزيز المصري ترك بصمات واضحة في نجاحات المقاومة حتي مع التزامه العسكري بأمر قيادته العسكرية في الدولة العثمانية، ورفضه تسليم الأسلحة العثمانية للسنوسيين، وهو ما أدى في النهاية وبحكم طبائع الأشياء، إلي وقوع معركة بينه وبين السنوسيين عاد بعدها إلي الإسكندرية ثم الأستانة في ١٩١٦ .

وهنا ينبغي لنا أن نتأمل بعمق في مخاطر المعارك الجانبية التي تفرض نفسها على ذوي الهدف الواحد نتيجة سوء الفهم، أو قلة المعلومات، أو ردود الأفعال السريعة الناشئة من طبيعة النزاعات الثورية المتأججة.

ومع أن عزيز المصري لم يكن بريئاً تماماً من مثل هذه النزاعات القصيرة النظر والنزاعات الناشئة عنها، فإننا نستطيع أن نتفهم موقفه الحرج و الحساس، وهو الذي

كان متهما من الطرفين علي حد سواء: فالعثمانيون لا يتجاهلون نزعته العربية الواضحة، والسنوسيون (كعرب محليين) لا يستطيعون تصور ضرورة التزامهم بالكيان الأكبر من أجل تحقيق الهدف القومي علي مدي ليس بالبعيد.

مشاركته مع الشريف حسين في الثورة العربية

وتأتي المرحلة الثالثة من جهاد عزيز المصري متمثلة في اشتراكه الفعال فيما سمي بالثورة العربية التي قادها الشريف حسين، شريف مكة، مع نهاية الحرب العالمية الأولى وقد كان عزيز المصري سندا قويا لهذه الثورة، وقد شارك فيها من موقع قوة سياسية وعسكرية بارزة الملامح حيث كان زعيما لجمعية العهد التي أسستها مجموعة من الضباط العرب المقاومين للتمييز التركي ضدهم، ويكفي لتصوير هذا التميز والإحساس العميق به وبضرورة مقاومته أن نذكر أنه في أكتوبر ١٩١٣ كان ٣١٥ ضابطا من مجموع ٤٩٠ ضابطا عربيا في الجيش العثماني قد انضموا إلي عزيز المصري وجمعيته.

وهكذا ألقى القبض علي عزيز المصري في إبريل ١٩١٤ ووجه إليه الاتهام بأنه يناقض مصلحة الدولة العثمانية ببثه للفكرة العربية بين الأهالي، ونصت الاتهامات صراحة علي أنه يسعى إلي إقامة دولة عربية يكون بمثابة الرجل الأول فيها.

وزيرا للحربية ورئيسا لأركان حرب الجيش العربي

وبهذه الخبرة الضخمة تحالف عزيز المصري مع الشريف حسين وخاض معه حركته التي انتهت بإعلان الشريف حسين ملكا في ٢٩ نوفمبر ١٩١٦ وتشكيله حكومة عربية كان عزيز المصري فيها وزيرا للحربية ورئيسا لأركان حرب الجيش العربي..

عودته لمصر و اعتزاله منذ ١٩١٧

ومرة أخرى عاني عزيز المصري من الوشائيات التي كان من السهل عليها أن تستغل طبيعة و ملامح شخصيته الجبارة في تصويره علي نحو ساع للتمرد، ذلك أن

إمكانات عزيز المصري كانت تؤهله لأن يكون رجل الدولة الأول لا مجرد وزير دفاع ورئيس أركان.. وهكذا وجد عزيز المصري أن من الأفضل له أن يعود إلي مسقط رأسه في القاهرة في مارس ١٩١٧ حيث بقي طيلة عشرين عامًا بعيدًا عن العمل العسكري والسياسي المباشر، وإن لم يبتعد عما هو أهم من هذا، وهو تربية أجيال عظيمة تشربت منه الوطنية والثورة والعمل العام.

فضل معاهدة ١٩٣٦

وفي ١٩٣٧ يتاح لمصر بفضل معاهدة ١٩٣٦ أن تبدأ في تنظيم قواتها المسلحة فتلتقت إلي هذا العسكري البارز الذي كان قد اكتفي بمنصب مدير كلية البوليس والذي عهد إليه الملك فؤاد بالتربية العسكرية لابنه الملك فاروق..

رئيس أركان حرب الجيش المصري

ويتقلد عزيز المصري منصب رئيس أركان حرب الجيش المصري، وينال رتبة الفريق بعد ما نال رتبتي اللواء والباشوية ، ويمارس عزيز المصري مرة أخرى دور الأستاذية والأبوية للدفعات التي قامت بحركة ١٩٥٢.

القلق البريطاني من وجوده المتقدم

لم يكن من السهل علي بريطانيا مع قيام الحرب العالمية الثانية أن تظمن إلي وجود شخصية من وزن عزيز المصري في موقع متقدم من الجيش المصري، وكان هذا هو التفكير الإنجليزي المنطقي، وإن لم يكن هذا التفكير يتلاقى بالطبع مع مصلحة مصر، وهكذا ترك عزيز المصري قيادة الجيش في ١٩٤٠.

قصة هروبه الشهيرة

سرعان ما تأكدت الشكوك البريطانية في مايو ١٩٤١ حين حاول عزيز المصري وهو فريق متقاعد ورئيس سابق لأركان الحرب الجيش المصري أن يهرب بطائرة حربية مع حسين ذو الفقار صبري وعبد المنعم عبد الرؤوف ليبدأوا أو ليتموا تعاوننا

وثيقًا مع القوات الألمانية، ولكن العجلة في الهرب دفعت إلي خطأ فني قاد إلي سقوط الطائرة في قلوب حيث اختفى عزيز المصري.

النحاس باشا يفرج عنه

وظل عزيز المصري هاربا متخفيا في بيت بامبابة حتي قبض عليه في ٤ يونيو ١٩٤١، حيث أودع المعتقل وظل فيه حتي أفرج عنه النحاس باشا في مارس ١٩٤٢ في بداية عهد وزارته التي أعقبت حادث ٤ فبراير، ولكن عزيز المصري عاد إلي بث الثورة مما دفع قوات التحالف إلي أن تطلب اعتقاله مرة أخرى.

حرب فلسطين بمثابة المعركة قبل الأخيرة

ثم كانت حرب فلسطين ١٩٤٨ بمثابة المعركة قبل الأخيرة التي حظيت بنشاط عزيز المصري وتشجيعه وتخطيطه، حيث بذل جهدا بارزا في تنظيم كتائب المتطوعين في هذه الحرب، وكان معظم هؤلاء المتطوعين من تلاميذه المقربين الذين اختارهم بنفسه، وشجعهم علي الاستقالة من القوات المسلحة النظامية والانضمام إلي قوات المتطوعين المصريين التي كان لها الفضل في الحفاظ علي جزء كبير من أرض فلسطين، والحيلولة دون التهام إسرائيل لأكثر مما التهمته بالفعل.

معارك الفدائيين ١٩٥١ الحرب الأخيرة التي أسهم فيها

أما الحرب الأخيرة التي أسهم فيها عزيز المصري فكانت معارك الفدائيين المصريين في القناة عام ١٩٥١، وقد بذل عزيز المصري جهدًا جبارًا في تنظيم الكتائب المصرية في هذه المقاومة، وكالعهد به في مغامراته المحسوبة الذكية فقد استغل علاقته بمحافظ القاهرة في ذلك الوقت فؤاد شيرين باشا واختفى في منزله، وهو المكان الذي لم يكن يدور بخلد السلطات أن تبحث عنه فيه.

سفيراً لمصر في موسكو

وقامت حركة ١٩٥٢ ورأي رجالها أنه لابد من الجمع بين تكريمه وتحبيده علي نحو يحفظ لهم حقوقهم المادية، ويحفظ له حقوقه المعنوية، وهكذا اختير له منصبه سفيراً لمصر في موسكو علي أن يرافقه في هذا المنصب رجل يحظى بثقة الثوار الجدد.. وكان هذا الرجل هو الدكتور محمد مراد غالب، الذي أزال بما نشره في مذكراته، مؤخرًا، الغموض والالتباس حول طبيعة دوره وعلاقته بعزيز المصري.

مقارنة مسيرة حياته بحياة النحاس باشا

ليس من العجيب أن هذا الرجل ولد في العام الذي ولد فيه النحاس باشا (١٨٧٩) ومات في العام نفسه الذي مات فيه النحاس باشا (١٩٦٥)، وقد مثلت حياة الرجلين الزعيمين المثل الأعلى لمسارين وطنيين بارزين في الحياة القومية والوطنية، وهما مساران تكاملا ولم يتعارضا، وإن لم يلتقيا أيضا، وقد ظلا يتكاملان حتى وصلت مصر بفضل الممارسات الذكية العاقلة إلي استقلالها الذي اكتمل لأول مرة حين رفع العلم المصري علي طابا بعد معارك مشرفة علي جميع المستويات.

هذا الفصل

نشر هذا الفصل في مجلة روز اليوسف في سلسلة عظماء المصريين.

الفصل العاشر

الشهيد عبد المنعم رياض

تكريم مستحق

أخيرا وبعد أكثر من ثلاثين عاماً ارتفع في قلب القاهرة تمثال للشهيد العظيم عبد المنعم رياض ١٩١٩- ١٩٦٩ فخر العسكرية المصرية وسمائها الذي جمع العلم والعمل والبطولة والالتزام والخلق الرفيع و كان مثالا لاستقامة الخلق، وكفاءة المتخصص، وإخلاص العامل، وأمانة المسئول، وتقدير الرؤساء، واحترام المرؤوسين، وسلامة التفكير، وعمق البحث، ودقة الفهم، وكفاءة الأداء .

كان عبد المنعم رياض أستاذا متمكنا، ومعلما قديرا، يفنح لأنه يعلم، ولأنه يعرف كيف يعلم، ولأنه يملك القدرة علي الإقناع، ولأنه كان في عمله أستاذا بالسليقة .

وليس من شك في أنه كان علي رأس قادة الاستراتيجية العسكرية وخبرائها في الشرق الأوسط، ولم يكن هذا بحكم موقعه القيادي في القوات المسلحة العربية فحسب، ولكن قدرة رياض الاستراتيجية هذه قد تكونت نتيجة لثلاثة عوامل تضافرت حتي كونت منه تلك الطاقة رفيعة المستوي والقدر والقدرة .

وأول هذه العوامل هو استعداده ومواهبه الطبيعية وقدراته القيادية ومداركه الواسعة التي وهبها الله إياه، فقد كان عبد المنعم رياض بفطرته علي أعلي درجات الاستعداد والكفاءة للتقبل، والانتفاع بما اكتسب من أخلاق ومعارف . وبالإضافة إلي هذا فقد كانت له - رحمه الله - خبراته الواسعة الممتدة لأكثر من الأربعين عاما متصلة اتصال الخيط الواحد في صفوف القوات المسلحة مقاتلا وقائدا وأستاذا، وطيلة هذه السنوات كان رياض في المعمرة ويده في النار كما يقولون . أما العامل الثالث فتمثله ثقافة رياض الواسعة والتي لم يتوان يوما ما عن تحصيلها واكتسابها ثم تنميتها

وصقلها بكل طريق، حتي تكونت له إلمامات رفيعة المستوى في السياسة والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والتاريخ، بالإضافة إلي اللغات الثلاث التي كان يتقنها، وبالإضافة إلي استيعاب تفصيلات العلوم الطبيعية المتصلة بعمله . ولو أنك بحثت في جيل رياض من العسكريين جميعا ما وجدت من يضاھيه في هذه الناحية ولا من يقترب إليه . وهكذا تضافرت هذه العوامل الثلاثة علي تكوين قدرة استراتيجية عليا له استطاع بها أن يسهم في تنسيق وتوجيه كافة قدرات الدولة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والمعنوية نحو الهدف الأسمى في تحرير التراب الوطني وتحقيق النصر القومي علي العدو في ظل أسوأ ظروف تحيط بأصحاب هدف .

القادة لا يولدون، ولكنهم يصنعون

كان عبد المنعم رياض لا يفتأ يعبر عن رأيه الأصيل في أن القادة لا يولدون، ولكنهم يصنعون، يصنعهم العلم، والتجربة، والفرصة، والثقة، ولعل هذا هو الأصل في رأيه الذي أبداه عن حرب ١٩٦٧ حين قال : إنه كان لدينا جيش، ولكن لم تكن لدينا قيادة علي الإطلاق، وماذا يفعل أي جيش إذا فقد رأسه ؟ لقد كان الذين يتولون تقاليد الأمر في قيادتنا يختارون الضباط الذين يدينون لهم بالتبعية، بصرف النظر عن الكفاءة . وكان رياض مع هذا من أشد المؤمنين بضرورة إشراك رجال الصفوف الثانية والثالثة في القرار، وهو خلق عسكري رفيع لا يتأتى لكل القادة أن يخرجوا به إلي حيز التنفيذ .

الواقعية في تحديد هدفه

وكان عبد المنعم رياض يمتاز بالواقعية في تحديد هدفه، ومن المؤكد أنه لم يكن أبدا من هواة التحليق في الخيال، ولا الهيمان مع العواطف والآمال، وفي ذلك أثر عنه قوله : " لا يستخلص تقدير الموقف السليم إلا من الحقيقة، فكل أعمال الحرب .. شأن كل أعمال الحياة، تدور حول اكتشاف ما لا تعرفه من حقائق وما كشفت عنه الحقيقة هو نفس ما يحتويه الواقع "، وبهذا المنطلق كان تخطيط رياض الذي اقترحه لاستراتيجية المعركة مع إسرائيل، وهو التخطيط الذي أقره مؤتمر القمة العربي

الثاني في قراره الذي وصف الهدف العربي في المجال العربي بأنه ذو مرحلتين : هدف أولي عاجل : هو تعزيز الدفاع العربي علي وجه يؤمن للدول التي تجري فيها روافد نهر الأردن حرية العمل العربي في الأراضي العربية، وهدف قومي نهائي هو تحرير فلسطين، ولكل من الهدفين أسلوب خاص بحشد الطاقات الميسرة وفقا ل خطة تفصيلية .

ومن منطلق الواقعية في تحديد الهدف كانت مساهمة عبد المنعم رياض في صياغة نظريتنا الاستراتيجية بعد حرب (١٩٦٧)، وهي الاستراتيجية التي فرقت بين معركتين لكل منهما هدفها وأسلوبها : معركة إزالة آثار العدوان ومعركة إعادة الحق المغتصب إلي شعب فلسطين، وحين أدركت إسرائيل مغزي هذه الاستراتيجية الحكيمة عبر قادتها عن ذلك بقولهم إن المخطط العربي يهدف اليوم إلي تصفية الوجود الصهيوني علي مرحلتين، وقد لا يصدق البعض أن مثل هذا القول كان لايزال يصدر عن الغطرسة الصهيونية حتي في أعقاب النصر الساحق الذي تحقق لهم في يونيو ١٩٦٧ .

قدرات فنية وتقنية ونضج وكفاءة

كانت لعبد المنعم رياض علي المستوي الشخصي قدرات فنية وتقنية علي درجة عالية من النضج والكفاءة، ومن ذلك ما حدث حين أوفد إلي جنيف (١٩٥٣) علي رأس لجنة لوضع مواصفات تسلم صفقة من المدافع المضادة للطائرات كانت الحكومة المصرية قد تعاقدت عليها في عهد حكومة الوفد (١٩٥١) مع مصانع (سبانو سوزا) السويسرية، وحين اجتمع رياض بالموردين ذكر لهم أن الطيران الحديث قد تطور تطورا كبيرا في السنوات الثلاث الأخيرة، وأصبحت وسيلة تغذية هذا النوع من المدافع بالطلقات غير مواكبة للسرعة التي وصلت إليها الطائرات الحديثة ، وأبدي الموردون عدم اقتناع بوجهة نظر رياض، وخاصة أن حلف الأطلنطي كان قد تعاقد معهم علي ذات المدفع، ونشطت المناقشات العلمية الواسعة حول هذه النقطة، واستطاع رياض مع قدر من المثابرة أن يحملهم علي الاقتناع برأيه وبخاصة بعدما استشهد لهم بالحسابات الفنية والدقيقة، وهكذا عدل الجانب

الغربي عن رأيه، وشكل لجنة علمية من بين مهندسيه بالاشتراك مع عبد المنعم رياض لتولي أمر تطوير المدفع، وبدأت اللجنة في إجراء تجاربها الإنتاجية الأولى بعدما قطعت شوطاً بعيداً، ولكن هذه التجارب أبانت عن فشل التصميم بالنسبة لأحد الأجزاء، واستعصى علي اللجنة حل هذه المشكلة، وعندئذ اقترح رياض أن تستدعي اللجنة أحد أساتذة جامعة القاهرة لدراسة هذه المشكلة وأكد لهم ثقته التامة في قدرة هذا الأستاذ، وذهب الأستاذ المصري فنجح في مهمته وعاد رياض بالتطوير الجديد بالمدفع المضاد للطائرات، وبعدها بعام كامل طلب حلف الأطلنطي أن تجري علي مدافعه التي تعاقد عليها التعديلات نفسها التي أجريت لصفقة الجيش المصري بفضل قدرة رياض الفائقة .

إيمانه بالأهمية القصوى للطيران

كان عبد المنعم رياض يؤمن بالأهمية القصوى للطيران، وكان يقول للذين يحدثهم : «إذا أرادت إسرائيل أن تضرب فبالطيران قبل غيره، وإذا أردنا ضربها فبالطيران، وحرب الطيران هي حرب السرعة الخاطفة، حرب الأيام المعدود علي أصابع اليد الواحدة وبعدها النصر أو الهزيمة» . وكأنما كان رياض يستشرف في هذا ما استطاعت قواتنا المسلحة أن تحققه في حرب الساعات الست في أكتوبر سنة ثلاث وسبعين (١٩٧٣) بفضل سلاح طيران قوي جيد العدة، فدائي الخطوة قاده قائد ذهبي دخل التاريخ من أوسع أبوابه .

عشقه للعلم

وليس أدل علي تعلق عبد المنعم رياض بالعلم مما فعله في أول العام الدراسي أكتوبر (١٩٦٦) حيث توجه وهو رئيس أركان حرب القيادة العربية الموحدة إلي عميد كلية تجارة عين شمس فطلب إليه أن يوافق علي قبوله طالبا منتسبا بالسنة الأولى، ودهش العميد لهذا الطلب ولم يقلل من دهشته ما أخبره به شهيدنا من أنه ينوي إعداد رسالة عن (تغير اتجاه المجهود الرئيسي لقوات الهجوم)، وهي رسالة تتطلب المعرفة التامة بعلم الاقتصاد إلي جانب القدرة والفن الاستراتيجي. وعرض العميد علي الفريق رياض أن يختار له بعض الأساتذة ليعاونه فيما يحتاج إليه من

دراسة، ولكنه أبي إلا أن يبدأ بداية منهجية، ولم يكن في وسع العميد إلا أن يجيب طلب الفريق، فلما كان موعد الامتحان ذهب الرجل الثاني في القيادة العربية الموحدة يؤدي الامتحان مع طلبته، ولكن بشائر الحرب سرعان ما ظهرت في الأفق واستدعي رياض لقيادة جبهة الأردن، واندلعت حرب الأيام الستة وانتهت، وظهرت النتيجة تعلن عن نجاح عبد المنعم رياض في المواد التي أدي فيها الامتحان .

كان عبد المنعم رياض من القادة القلائل الذين يتقنون اللغات كأبنائها، ولم يكن ذلك إلا صورة من صور تعطشه إلي المعرفة، وحبه للقدرات العلمية الرفيعة، علي أن الشيء الأروع في هذا الأمر هو أن رياض استطاع أن يتقن - بالإضافة إلي الإنجليزية - ثلاث لغات أخرى في ثلاث سنوات متتالية، تعلم الفرنسية علي يد مدرس خاص (١٩٥٢) والألمانية (١٩٥٣) والروسية (١٩٥٤)، وحين بدأت علاقتنا بالاتحاد السوفيتي تتوثق، فقد كان رياض من الشخصيات المعودة علي الأصابع التي تتقن الروسية في هذه الفترة المبكرة.

وإذا ذهبنا نحصي الفترات التي قضاها عبد المنعم رياض من خدمته في الدراسة لوجدناها تربو علي تسع سنوات، وهو رقم (خيالي) لضابط قائد مثل رياض لم يقض في خدمته أكثر من واحد وثلاثين عاما، بل إنه قلما يتاح لأعضاء هيئات التدريس في الجامعات أن يمضوا مثل هذا الزمن في مقاعد الدرس، ولا مرأ في أن هذه الفترات التي قضاها عبد المنعم رياض في تلقي العلم قد أفادته بالقدر الذي أفادته فيه الخبرة التي هيأها له الله في تسلسل بديع لم يبعد به عن نطاق تخصصه الدقيق في المدفعية المضادة للطائرات. كانت الطرق تتفرع بعبد المنعم رياض طيلة حياته، فببقي في أكثرها استواء، من حيث لم يكن يعلم ولم يكن من حوله يعلمون أنه سينتهي به قدره إلي هذا القدر الرفيع، الذي لم يكن في الإمكان أرفع منه، لقائد مصري شاءت الدنيا أن يكون لوطنه في وقت، كان السواد يسوده، ولكن النور كان يطل، وعلي يد رياض حيناً، وبإنجازه حيناً، ثم برياض نفسه، وقد استحال بشهادته إلي نور بقي في فؤاد هذا الجيش الذي أتيح له بعد أربع سنوات أن ينير للأمة كلها عصرا جديدا فيه ضمن ما فيه من العزة والكرامة ورفع الشأن أقدار مقدورة .

نشأته

ولد الشهيد عبد المنعم محمد رياض عبد الله في الحادي والعشرين من شهر أكتوبر سنة تسع عشرة (١٩١٩) في بلدة «سيرباي»، وهي بلدة بالقرب من طنطا ولكنها كانت تتبع مركز المحمودية (بحيرة)، وهي موطن أسرة والدته السيدة عائشة محمد الخولي، وكان والده حين ولد يعمل في السودان . كان الأميرالاي محمد رياض والد الشهيد واحدا من الرعيل الأول للعسكريين المصريين في العصر الحديث، عرف بتفانيه في عمله، وحرصه الشديد علي كرامته الشخصية . وفي سنة ثمان وعشرين (١٩٢٨) انتقلت الأسرة مع عائلها إلي مقر عمله الجديد في العريش حيث درس في مدرسة العريش الابتدائية، ولم يلبث عبد المنعم رياض أن انتقل مع والده إلي الإسكندرية سنة ثلاثين (١٩٣٠)، فاستأنف دراسته الابتدائية في مدرسة الرمل حتي حصل علي الابتدائية سنة واحد وثلاثين (١٩٣١)، ثم تابعت الأحداث علي حياة الأسرة، فقد نقل الوالد إلي القاهرة ورفي إلي رتبة القائمقام وأصبح قائدا للأورطة الثانية ببيادة، ثم توفي بينما كان الشهيد في بداية دراسته الثانوية بمدرسة الخديو إسماعيل، وبينما كان إخوة رياض لا يزالون جميعا في مراحل التعليم المختلفة، ويحصل عبد المنعم رياض علي البكالوريا من القسم العلمي في الخديو إسماعيل سنة ست وثلاثين (١٩٣٦) بمجموع يؤهله للالتحاق بكلية الطب، غير أن أن عبد المنعم رياض كان يؤمل الالتحاق بالحربية، ولم تكن والدته تحب له أن يلقي من عناء العسكرية ما لقيه والده، ولكن رياض كان يؤمن بالمثل الداعي إلي خلافة الأب في مهنته، واستعانت الأم بأخيها في إقناع ولدها فلم يزل به حتي أقنعه بدخول قصر العيني، وسدد القسط الأول من مصروفات الكلية، ولكنه لم يكد ينتظم في دراسته حتي طالع إعلانا للكلية الحربية عن مواعيد الكشف الطبي، وذهب فألح علي والدته أن تبارك رغبته في الالتحاق بمصنع الرجال، ولم تكن والدته النيرة في حاجة بعد هذا إلي الإلحاح.

في الكلية الحربية

التحق عبد المنعم رياض بالكلية الحربية في السادس من أكتوبر سنة ست وثلاثين (١٩٣٦)، بعدما شارك في ثورة الطلبة في سنة خمس وثلاثين (١٩٣٥) وهو طالب في الخديو إسماعيل، وكان موهوبا في الخطابة واستثارة الحماسة، وكان إذا خطب في طاوور الصباح خرجت المدرسة فانضمت إلي مظاهرات الطلبة الهادرة التي كانت تناشد زعماء الأحزاب يومها الاتحاد علي كلمة واحدة من أجل مصلحة البلد ومستقبله وتعرضت صدور هؤلاء الطلاب للرصاص، ووجد الزعماء أن لا مفر من أن يضحوا بخلافاتهم من أجل الهدف الذي ضحي له الشباب بأرواحهم !

وفي الكلية الحربية و بينما كان أحد أساتذته يلقي درسا علي طلبته والطلبة في واد آخر لا يلقون بالا إلي ما يلقيه أستاذهم، رفع عبد المنعم رياض يده، وقام إلي أستاذه في احترام وانضباط يسأله، ولكن الأستاذ لم يطق صبيرا ، فأمره بالانصراف إلي مكتبه وانتظاره حتي يعود إليه فيحقق معه، وفي نهاية التحقيق وجه مساعد كبير المعلمين إلي رياض تهمة ارتكاب جناية السؤال والمناقشة والتمرد، واختتم التحقيق بقرار بفصل عبد المنعم رياض من الكلية الحربية، ولكن كبير المعلمين أعاد فتح التحقيق، ثم أمر بحفظ التحقيق !.

ولم يلبث عبد المنعم رياض بعد تخرجه أن التحق بسلاح المدفعية المضادة للطائرات، ولم يكن لهذا السلاح من العمر أكثر من عام، وهكذا أتيح للضابط الشاب أن يكون من الرواد الذين يشقون الطريق، وأن يكون من أوائل المصريين الذين بدأوا يدرسون ويعملون في هذا المجال الذي نمت أهميته يوما بعد يوم حتي أصبح يمثل القوة الرابعة في عصرنا الحاضر .

مع البعثة البريطانية للمدفعية المضادة للطائرات

بدأ عبد المنعم رياض يتلقى العلم العسكري المتخصص علي يدي الكابتن بيكتل رئيس البعثة البريطانية للمدفعية المضادة للطائرات في فرقة عمليات المدفعية بالزمالك، وبعد فترة وجيزة أدرك رياض أن علم «حركة المقذوفات» - وهو العلم

الأساسي في دراسات المدفعية - يحتاج إلي خلفية علمية ورياضية أكثر من تلك التي حصلها في دراسته السابقة، فالتحق في مايو سنة ١٩٣٨ بالقسم العلمي في المعهد البريطاني بالقاهرة، يستزيد من العلوم ويواكب بها دراسته التخصصية، وظل منتظما في دراسته في هذا المعهد إلي أن أغلق أبوابه مع بداية الحرب العالمية الثانية في أوائل سنة أربعين (١٩٤٠) .

وكانما كان عبد المنعم رياض عندما انتهى من دراسته التخصصية في المدفعية المضادة للطائرات، علي موعد مع الحرب العالمية الثانية التي بدأت بالفعل سنة تسع وثلاثين (١٩٣٩)، وقبيل قيام هذه الحرب كان الآلاي المصري للمدفعية المضادة للطائرات - والذي كان عبد المنعم رياض يخدم في البطارية الأولى منه - قد انتقل إلي الإسكندرية ليدخل دورة تدريبية ينافس فيها آلاي إنجليزي مشابه، وكان التدريب يومئذ يتم بالتصويب علي هدف مقطور ، فيما كان الآلاي الإنجليزي عاجزا طيلة شهر كامل عن إصابة الهدف، جاء عبد المنعم رياض وزملاؤه فأصابوا الهدف من أول طلقة ثم أصابوا الهدف ثلاث مرات أخري في الطلقات الثلاث التالية، وهنا عبر قائد الآلاي الإنجليزي لأركان حربه عن دهشته من هذه القدرة الخارقة لهؤلاء المصريين.

ولم تلبث سمعة « الطوبجي المصري» أن ذاعت بين فصائل الجيوش البريطانية المحاربة في الصحراء الغربية، فأخذت القيادة البريطانية تتوسع في تشكيل هذه الآليات المصرية وفي تسليحها وتدريبها حتي إذا حان الحين، وأخذت طائرات الألمان تدك الإسكندرية وما حولها وجد الإنجليز عندهم من تلك الكفاءات المصرية ما رد عنهم غارات جيوش المحور، ودفع شرها عن ميناء الإسكندرية الذي كان يحفل يومئذ بقطع الأسطول البريطاني، وسفن الإمداد والتموين التي لا تنقطع حركتها عن الميناء ، وهكذا استدعي عبد المنعم رياض من موقعه كمدرس للمدفعية المضادة للطائرات في مدرسة المدفعية بالعباسية ليقود إحدى الفصائل الحربية التي تولت الدفاع عن الإسكندرية ومينائها، ثم ليتوجه بأورطته هذه إلي السلوم ، حتي إذا انزاح عن الحلفاء كابوس الحرب عاد رياض إلي موقع الأستاذية في القاهرة (١٩٤٤) .

أول دفعة تخرجت في كلية أركان الحرب

تخرج عبد المنعم رياض الضابط الشاب الحديث علي رأس أول دفعة تخرجت في كلية كلية أركان الحرب في ديسمبر سنة أربع وأربعين (١٩٤٤) سابقا بذلك كل زملائه من قادة الثورة وقادة القوات المسلحة المصرية في عهد الثورة وفي سنة خمس وأربعين (١٩٤٥) اختير عبد المنعم رياض ليدرس في مدرسة فن المدفعية في «لاركيل تاون» بإنجلترا، وهناك أظهر من المهارة ما جعل قائد المدرسة يحدثه عن ارتفاع مستواه العلمي والفني، وانتهزها عبد المنعم رياض فرصة فطلب إلي قائد المدرسة أن يصرح له باختصار الدورة إلي خمسة شهور بدلا من عشرة، فأجابته القائد إلي طلبه، وانتهي رياض من دراسته في الفترة التي حددها لنفسه وتخرج في اليوم العشرين من فبراير سنة ست وأربعين (١٩٤٦) متخصصا في تعليم المدفعية بنوعيتها : مدفعية الميدان، والمدفعية المضادة للطائرات، وذلك بعد أن حصل علي لقب معلم مدفعية من مدرسة المدفعية المضادة للطائرات في جنوب ويلز . واستكمل شهيدنا دراسته بعد ذلك في كلية «دولتس» الأكاديمية بإنجلترا .

في حرب فلسطين و ما بعدها

عمل رياض في القيادة وفي حرب فلسطين وكان بحق بمثابة همزة وصل بين القادة في القاهرة وقيادة الميدان علي أرض فلسطين، وقد شهد له اللواء عمر طنطاوي قائد المدفعية في حرب فلسطين، ولعل هذا يفسر لنا تقدير الدولة لرياض في أعقاب حرب فلسطين، حيث نال نوط الجدارة الذهبي في فبراير (١٩٤٩) . وعقب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عمل في ثلاث وظائف متتالية : قائدا لمدرسة المدفعية المضادة للطائرات فيما بين (١٩٥٢) ومايو سنة ثلاث وخمسين (١٩٥٣) ثم قائد اللواء الأول المضاد للطائرات بالإسكندرية، فقائدا للدفاع الجوي المضاد للطائرات .

في أول مايو (١٩٥٣) ترك عبد المنعم رياض قيادة مدرسة المدفعية المضادة للطائرات ليتولى قيادة اللواء الأول المضاد للطائرات بالإسكندرية، وهناك عاش شهيدنا قريبا من أخيه الدكتور محمود رياض الذي كان يعمل في ذلك الوقت أستاذا للإلكترونيات في هندسة الإسكندرية، وقد عاد اللقاء الأخوين بالخير علي الوطن،

ذلك أن جيشنا كان إلي ذلك الحين ينفق علي تدريب المدفعية المضادة للطائرات كثيرا من الأموال، يشتري بها الطائرات (الهدف) وهي طائرات بلا طيار توجه باللاسلكي من الأرض، وتناور، بينما تلاحقها المدافع بالنيران، لتصيبها، وتسقطها إثباتا للمقدرة، وكان ثمن الطائرة الواحدة من طائرات الهدف هذه في أوائل الخمسينيات يبلغ خمسين ألفا من الجنيهات، فلما اجتمع الشقيقان الدكتور محمود والشهيد عبد المنعم ، تمكنا من وضع تصميم للطائرة يمكن معه تصنيعها محليا بربع تكاليف استيرادها من بريطانيا، وصارت قواتنا المسلحة تصنع هذه الطائرات محليا بعد ذلك !

وفي خلال قيادة رياض للدفاع الجوي المضاد للطائرات، نجح الشهيد في إدخال كثير من التطويرات والتحديثات علي هذا السلاح، كما نجح في إدخال المعدات اللاسلكية الإلكترونية، كما واصل إجراء الدراسات الملاحقة والمواكبة للتطورات الجديدة في صناعة وسائل الدفاع الجوي وهي الدراسات التي بدأها في مدرسة المدفعية، حين كان الحصول علي أجهزة الرادارات يعتبر من رائع الإنجازات، وكانت وحدات الرادار في ذلك الوقت من أخطر الأسرار في الجيوش المحاربة .

حرب ١٩٥٦ وما بعدها

كان عبد المنعم رياض يشغل منصب قائد الدفاع المضاد للطائرات، فلما كانت ضربة الطيران التي بدأت بها حرب ١٩٥٦ أدرك الرجل العسكري بثاقب نظره أن مكانه لم يعد بين جدران مكتبه، فخرج إلي المطارات القريبة يتنقل بينها في سرعة خاطفة، وكان يندفع بضباطه إلي المطارات القريبة من القاهرة والمطارات الواقعة في منطقة القتال لإنقاذ الطائرات الرابضة علي أرض هذه المطارات، وبلغ الأمر برياض وبضباطه في الحرص علي ثروتنا الجوية أنهم كانوا لا ينتظرون حتي يقودوا الطائرة، وإنما كانوا يدفعونها بأيديهم، وفيما كانوا يقومون بهذا كانت صواريخ العدو تأتيهم علي عجل تحاول أن تصيبهم في أيديهم . وفيما بين إبريل (١٩٥٨) وفبراير سنة تسع وخمسين (١٩٥٩)، أتيح لشهيدنا أن يقضي دورة تكتيكية متقدمة في الأكاديمية العسكرية العليا بـ «فرونز» بالاتحاد السوفيتي فآتمها بامتياز .

وطيلة الستينيات لم يكن عبد المنعم رياض يكف عن الانتقاد والتنبيه والمراجعة والتبصير، لكن النفوس لم تكن مهياً لتقبل انتقاده ولا تنبيهه ولا مراجعته ولا تبصيره، ولم يكن من السهل علي رياض أن يخرج من الجيش، ولم يكن من السهل عليهم أن يخرجوه، فرأوا أن من الأنسب لهم وله أن ينقلوه إلي القيادة العربية الموحدة، وواصل دراسته وعمله فالتحق بكلية الحرب العليا، وفي أثناء دراسته في كلية الحرب العليا حصل علي رتبة الفريق في إبريل (١٩٦٦) .

قيادة جبهة الأردن في ١٩٦٧

وقبيل حرب ١٩٦٧ اختارت القيادة لعبد المنعم رياض أن يقود جبهة الأردن، وصدر الأمر له بالتوجه من فوره إلي الأردن ليتولى مهام منصبه في آخر يوم من مايو (١٩٦٧)، وسرعان ما وصل عبد المنعم رياض إلي الجبهة فاجتمع في البداية بالملك حسين، ثم ذهب إلي قواته فاستعرضها، وإلي خطوطه فنظمها، ولم يمهله القدر أكثر من ذلك، إذ سرعان ما اندلع لهيب الحرب، وأصبح في موضع لا يحسد عليه، فالقوات الإسرائيلية تواجهه من كل جانب، والطائرات تهاجمه، وخاض أكثر من معركة من معارك الصمود كان هدفه فيها تقليل الخسائر إن لم يستطع رد هجوم عدوه، وصمد رياض في ظل الإمكانيات المتاحة له حتي استطاع أن يجنب جيوشه التي قادها مذابح كانت واقعة بلا ريب .

ولقد ظلت جماهير الأردن وفلسطين وجنود الجيش يذكرونه و يحتفظون له بصورته في مداخل بيوتهم، حتي استشهد فزاد تعلقهم به، وتقديرهم لسجاياه، وفخرهم بالعمل يوماً من الأيام تحت قيادته .

بعد هزيمة ١٩٦٧

ليس من قبيل المبالغة القول بأن رياض قد شارك مشاركة حقيقية وفعالة في اختيار كل قطعة سلاح زود بها جيشنا بعد عام ١٩٦٧ .

فكرة التوسع في تجنيد حملة المؤهلات العليا

ومما هو جدير بالذكر والتقدير أن عبد المنعم رياض كان صاحب فكرة التوسع في تجنيد حملة المؤهلات العليا، إيماناً منه بالمستوي الذي لا بد أن يكون عليه الجنود الذين سيحاربون بأحدث ما وصل إليه العلم من تكنولوجيا ومن ثم فلا بد أن تكون لهم القدرة علي استيعابها، وقد أثبتت الأيام وحرب أكتوبر بعد نظر شهيدنا العظيم صاحب الأفكار الثاقبة .

الصمود

وعقب نهاية الشهر الأخير من عام النكسة وأتاح الله للمدفعية المضادة للطائرات أن تسقط في اليوم الأول من سنة (١٩٦٨) ثلاثاً من طائرات «الميراج» الإسرائيلية في مياه خليج السويس ويعود سرب الاستطلاع الإسرائيلي الذي خرج أربعا ولم تبق منه إلا طائرة واحدة، وهكذا أثبتت المدفعية المضادة للطائرات أن جو هذا الوطن وهوائه له درع واقية، وفي هذين وقيل هذين كان الجندي المصري صاحب الفضل وصاحب ملحمة «رأس العش» و «إيلات» والمعركة الجوية المبكرة في ١٥ يوليو ١٩٦٧ .

هذا الفصل

نشر هذا الفصل على هيئة مقال مطول في صحيفة الاهرام في ١٩٩٩ بناء علي تكليف الصحيفة ، و ذلك بمناسبة إقامة تمثال عبد المنعم رياض في الميدان المسمى باسمه في وسط القاهرة، ومع أن كثيرا من فقرات هذا المقال وردت في ثنايا كتابنا الموسع عن الشهيد ، فإن هذا الفصل المضغوط يمثل نموذجا لكتابة مختصرة الحجم مكثفة المضمون عن هذا البطل العظيم.

المحتويات

٥	هذا الكتاب
٩	الفصل الأول
٩	الزعيم سعد زغلول بعد ٨٠ عاما من ثورة ١٩١٩
٩	بدايات ثورية : سجن وبراءة
٩	من المحاماة للقضاء
١٠	صالون الأميرة نازلي فاضل
١٠	أول مَنْ تولى الوزارة من غير الباشوات
١٠	أحد المرشحين البارزين لرياسة الوزارة
١١	انتخابه في الجمعية التشريعية ووكالته لها
١١	تأليف الوفد
١١	اندلاع الثورة والنفي إلى مالطا
١٢	النفي للمرة الثانية
١٢	ليست مسألة أغلبية ، وإنما مسألة توكيل
١٢	تصريح ٢٨ فبراير والدستور والانتخابات
١٣	سعد أو الثورة
١٤	إنجازات وزارة الشعب
١٤	تقييد حركة المندوب السامي
١٥	البرلمان الوفدي و الروح الوطنية
١٥	رفضه المصالحة مع الأحرار الدستوريين
١٦	الأزمة تتصاعد مع الملك
١٧	حادثة مقتل السردار تضطره إلى تقديم استقالته
١٧	تصاعد الحقد على الحركة الوطنية
١٨	تمتع بمواهب وقدرات لا حدود لها
١٨	حظي بتخليد لم يحظ به أحد غيره
١٩	حظي بالإعجاب الشديد حتي من أعدائه
١٩	خطابته حافلة بالمعاني القوية المبتكرة
١٩	ذروة البلاغة

٢٠.....	نفس عظيمة قادرة واثقة
٢٠.....	وضوح الرؤية
٢٠.....	الوحدة الوطنية
٢٠.....	التعلم المستمر وتمييز الواعدين
٢١.....	مذكراته تمثل أثرا أدبيا
٢١.....	المذكرات تقدم مواد كثيرة للتاريخ الاجتماعي
٢٢.....	التعبير المرسل الحر
٢٢.....	رواياته عن الأحداث السياسية تتسم بالدقة والأمانة
٢٢.....	القدرة على نقد الذات
٢٣.....	لم ينف جهود من سبقوه
٢٣.....	كتابه غير المشهور
٢٣.....	كتب كثيرة عن حياته وسيرته
٢٣.....	هذا الفصل
٢٤.....	الفصل الثاني
٢٤.....	عباس محمود العقاد الأستاذ الأكبر
٢٤.....	أبرز شخصية عربية في المجال الفكري في القرن العشرين
٢٤.....	مكانة رفيعة صنعها بنفسه
٢٥.....	نبغ وتسيد في كل ما مارس من فنون القول والمعرفة
٢٥.....	شاعر للطبيعة و شاعر للحكمة
٢٥.....	الفنان الذي ارتفع بفن المقالة إلى آفاق الفكر
٢٦.....	الفضل الأوفى في فن الترجمة الأدبية
٢٦.....	تاريخه ملحمة نادرة التكرار
٢٦.....	وجد أن التعليم النظامي سيحد من حبه للمعرفة وشغفه بها
٢٧.....	استقلال الشخصية واستقلال الإرادة
٢٧.....	فضل سعد زغلول باشا
٢٨.....	عاش حياته برأس مرفوع
٢٨.....	كتابات السياسية قد ثقفت أمة بأكملها
٢٩.....	تميزت كتاباته بسعة الأفق والقدرة على استشراف المستقبل
٢٩.....	حظي بصداقات عديدة، و بتلاميذ نجباء متفوقين
٢٩.....	أسلمت رايات النقد إليه مقاليدها
٣٠.....	وطد دعائم النقد الجديد
٣٠.....	أفضاله في الميادين الخمسة
٣٠.....	تناوله للإسلاميات والشخصيات الإسلامية

٣١	هذا الفصل
٣١	الفصل الثالث
٣١	علي مصطفى مشرفة
٣١	نشأته وتأهله الذكي المبكر
٣٢	بحوثه العلمية
٣٢	رائد العلماء في الاتصال الجماهيري
٣٢	نشر الثقافة العلمية
٣٣	المؤسسات العلمية الوطنية
٣٣	هواة الموسيقى
٣٤	التراث العلمي العربي
٣٤	المواسم الثقافية للهيئات الأجنبية والمصرية
٣٤	الجهود المعجمية
٣٥	قوائم أعماله ومقالاته
٣٥	الكتب المدرسية والمراجع الجامعية
٣٥	النشاط العلمي والاجتماعي في الجامعة
٣٦	الإصدارات المتتالية لكتابنا عنه
٣٧	مذكراته
٣٧	وقاته
٣٨	الفصل الرابع
٣٨	الدكتور أحمد زكي العالم الأديب
٣٨	أسباب خلوده: الإخلاص والتفاني والتجويد
٣٨	الإيمان بالعلم بلا دروشة ولا توظيف
٣٩	روح التعطش للعلم
٤٠	بحوثه النظرية والصناعية والتطبيقية
٤٠	صاحب رسالة
٤١	أنشطة الجامعة
٤١	أول مدير مصري لمصلحة الكيمياء
٤٢	أعظم إنجازاته العلمية تأسيس معهد للبحوث العلمية
٤٢	رئاسة تحرير مجلة الهلال
٤٣	توليه الوزارة و رئاسة الجامعة
٤٤	حافظ للمؤسسة الجامعية على رونق ذي بريق في أزمة مارس
٤٤	محنة الديمقراطية في ١٩٥٤

٤٤.....	رئاسة وتأسيس أفضل مؤسسة ثقافية مشعة
٤٥.....	الببليوجرافيا الكاملة لأعماله الفكرية
٤٥.....	إسهامه في التأليف العلمي
٤٦.....	أعماله المترجمة
٤٦.....	خمسة كتب علمية مترجمة
٤٦.....	مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث: ماضيه وحاضره ومستقبله
٤٧.....	كتبه الجامعة لمقالاته
٤٨.....	مقالاته ودراساته ومحاضراته التي لم تنشر في كتب
٤٨.....	مقالاته في مجلة الثقافة
٤٨.....	مقالاته في مجلة العربي
٤٩.....	الأحاديث الإذاعية
٤٩.....	كتابنا عنه
٤٩.....	هذا الفصل
٥٠.....	الفصل الخامس
٥٠.....	الدكتور حسين فوزي المفكر المصري الكبير
٥٠.....	مفكر واسع الأفق
٥١.....	نشأته
٥١.....	بعثته العلمية
٥١.....	معهد علوم البحار بالإسكندرية
٥٢.....	تأسيس كلية العلوم في جامعة الإسكندرية
٥٢.....	وكيل وزارة الإرشاد القومي
٥٢.....	ريادته الثقافية
٥٢.....	أكاديمية الفنون
٥٣.....	قصته مع جائزتي الدولة التقديريتين
٥٣.....	قيمه بين الأدباء
٥٤.....	القصة القصيرة
٥٤.....	جهده في المجمع العلمي المصري
٥٤.....	هذا الفصل
٥٥.....	الفصل السادس
٥٥.....	مصطفى أمين و الظل الوارف للصحافة
٥٥.....	نشأة متميزة
٥٥.....	أستاذية الصحافة في جامعة القاهرة

٥٦.....	دراسته في أمريكا
٥٦.....	الحفاظ على كرامة المهنة
٥٧.....	الفن التشكيلي وفن الكاريكاتير
٥٧.....	آثار شخصيته في تلاميذه
٥٧.....	الرائد الأعظم لصحافة الخبر
٥٨.....	الأستاذ الأول لعلم المعلومات في مصر
٥٩.....	حبه للمعلومات كان هو سر نكبته
٥٩.....	كانت هزيمة ١٩٦٧ مستحيلة لو كان حرا طليقا
٦٠.....	إخلاصه للحقيقة التي يريد إبرازها
٦٠.....	نصوصه السردية ذات خصائص منفردة
٦١.....	عبر بالسياسة عن العاطفة برمزية واضحة
٦١.....	كان يثق بأن دوره محفوظ
٦٢.....	علاقته بالسيدة أم كلثوم هي العلاقة الأقوى في حياته
٦٣.....	هذا الفصل
٦٤.....	الفصل السابع
٦٤.....	تجديد ذكري إحسان عبد القدوس
٦٤.....	أشهر روائي عربي في ضمير الجماهير
٦٤.....	الصحفي الألمع في شبابه
٦٥.....	كاتب سياسي من طراز موهوب
٦٥.....	نشأته وأسرته
٦٦.....	جده أزهرى من رجال القضاء الشرعي
٦٦.....	تعليمه القاهري
٦٧.....	زواجه المبكر
٦٨.....	نشأته العائلية وجهته إلى الصحافة تدريجيا
٦٨.....	تأثره بوالديه
٦٨.....	تحديد رجاء النقاش لأساتذته : التابعى والعقاد و عزى
٦٩.....	فضل والدته في نبوغه الصحفي
٧٠.....	الاستعانة به رئيسا لتحرير أخبار اليوم
٧١.....	زيارته لفلسطين ١٩٤٦ وتوقعه للهزيمة
٧١.....	سجنه و محاولات اغتياله
٧٢.....	رفض الأمريكان إعطاءه التأشيرة لأنه زعيم شيوعي
٧٢.....	الدور السياسي الحقيقي للصحفي الناجح
٧٣.....	تصوير صلاح جاهين لشخصيته

٧٣.....	أقل زملائه نقدا للنماذج الطفيلية
٧٣.....	بعض نصوصه التي جلبت له المتاعب
٧٤.....	إشادة محسن محمد بالشجاعة التي وصل لها
٧٥.....	بدأ توهجه حين كتب عن الأسلحة الفاسدة
٧٥.....	سعة صدر النحاس باشا
٧٥.....	رغم موافقه لم يكن وفدياً
٧٨.....	هذا الفصل
٧٩.....	الفصل الثامن
٧٩.....	الدكتور عاطف صدقي والجائزة الكبرى
٧٩.....	يجيد العمل لا الحديث
٧٩.....	رجل دولة صبور دؤوب ومتمرن
٨٠.....	واسع الأفق
٨١.....	قيادة الفريق
٨١.....	الاختيارات الصائبة
٨٢.....	الخطط والتصورات والحلول
٨٢.....	تقبل النقد
٨٣.....	التواضع
٨٣.....	حبه للخير أبرز صفاته
٨٣.....	احترامه للغير
٨٤.....	ذاكرته الفولاذية
٨٤.....	هذا الفصل
٨٥.....	الفصل التاسع
٨٥.....	الفريق عزيز المصري
٨٥.....	مجموعة من القيم و القدرات
٨٥.....	كان عسكرياً عثمانياً متميزاً
٨٦.....	الجمود الفكري والتعصب الطوراني
٨٦.....	مشاركته في الانقلاب العثماني
٨٧.....	مشاركته في عزل السلطان عبد الحميد الثاني
٨٧.....	اكتشاف الحقيقة واللجوء الى العمل السري
٨٧.....	العمل السري مرة أخرى
٨٧.....	الصلح بين الإمام يحيى وبين الدولة العثمانية
٨٨.....	توظيف قدراته العسكرية من أجل الفكرة العربية

٨٨	تورطه في النزاعات مع السنوسيين
٨٩	مشاركته مع الشريف حسين في الثورة العربية
٨٩	وزيراً للحربية ورئيساً لأركان حرب الجيش العربي
٨٩	عودته لمصر و اعتزاله منذ ١٩١٧
٩٠	فضل معاهدة ١٩٣٦
٩٠	رئيس أركان حرب الجيش المصري
٩٠	القلق البريطاني من وجوده المتقدم
٩٠	قصة هروبه الشهيرة
٩١	النحاس باشا يفرج عنه
٩١	حرب فلسطين بمثابة المعركة قبل الأخيرة
٩١	معارك الفدائيين ١٩٥١ الحرب الأخيرة التي أسهم فيها
٩٢	سفيراً لمصر في موسكو
٩٢	مقارنة مسيرة حياته بحياة النحاس باشا
٩٢	هذا الفصل
٩٣	الفصل العاشر
٩٣	الشهيد عبد المنعم رياض
٩٣	تكريم مستحق
٩٤	القادة لا يولدون، ولكنهم يصنعون
٩٤	الواقعية في تحديد هدفه
٩٥	قدرات فنية وتقنية ونضج وكفاءة
٩٦	إيمانه بالأهمية القصوى للطيران
٩٦	عشقه للعلم
٩٨	نشأته
٩٩	في الكلية الحربية
٩٩	مع البعثة البريطانية للمدفعية المضادة للطائرات
١٠١	أول دفعة تخرجت في كلية أركان الحرب
١٠١	في حرب فلسطين و ما بعدها
١٠٢	حرب ١٩٥٦ و ما بعدها
١٠٣	قيادة جبهة الأردن في ١٩٦٧
١٠٣	بعد هزيمة ١٩٦٧
١٠٤	فكرة التوسع في تجنيد حملة المؤهلات العليا
١٠٤	الصمود
١٠٤	هذا الفصل

Prof. Mohamed El Gawady

ISIN : 0000 0001 2122 604X

Fertile Ingenuity Authority

1906 - 2000





الدكتور محمد الجوادى

يضم هذا الكتاب مجموعة مقالات تذكارية
نشرت في ذكريات عزيزة على تاريخنا ،
وقدمنا في ثناياها تعريفات موجزة بعطاء
رموز النبوغ الخصيب الذي ترك أثره
الذي لا يزال يشع بالعطاء و الاقتداء .

- سعد زغلول
- عباس محمود العقاد
- علي مصطفى مشرفة
- أحمد زكي
- حسين فوزي
- عزيز المصري
- عاطف صدقي
- مصطفى أمين
- إحسان عبد القدوس
- عبد المنعم رياض

